بعض الرحيل

عنوان الكتاب: بعض الرحيل
نوع العمل: رواية
التأليف: هند العراقي
المراجعة اللغوية: هبة ممدوح
الإخراج الفني: هند محمود
تصميم الغلاف: أمنية محمد
رقم الإيداع: 2020/9130
الترقيم الدولي: 978-977-6787-53-7
الناشر: دار (المثقفون العرب)

Facebook Page: **المثقفون العرب للنشر والتوزيع**
Email: almothakafonsh@gmail.com
Tel: 002010130297494

شيرين القاضي
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار المثقفون العرب

كل الحقوق محفوظة ولا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال، ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

بعض الرحيل

رواية

هند العراقي

إهداء

إلى أولئك الذين جعلوني أُفتِّش عن المعاني.

إلى نفسي التي آمنت بأنني -يوما ما- سأفعلها.

هند العراقي

الفصل الأول

الحياة تلهث مسرعة، لن يستطيع أحدٌ إيقافها، شئت أم أبيت ستمضي، وسترحل معها الآمال والآلام.

انتفاضة الروح

لم يزدْها ذلك الحزن إلا شحوبًا، زاد صمتها وانعزالها، أيقنت أنها لن تستطيع تجاوز تلك الصدمة سريعًا؛ فهي ليست من النوع المتشائم الذي يرحل سريعًا في رحلة اكتئابٍ بلا عودة منها.

ربما كان تحمُّلها أكثر مما ينبغي؛ مما زاد الضغط على أعصابها، ربما كانت تأمل شيئًا فأهدتها صفعات الحياة شيئًا آخر.

هو لم يعبأ بمشاعرها مطلقًا، كانت دائمةَ النظرِ إلى عينيه الدقيقتين بلونها البني اللامع، كم عشقت تلك العينين كثيرًا؛ حيث كانت ملاذها للإبحار نحو أحلامها الوردية البسيطة، وذلك المنزل المنعزل عن العالم ربما في إحدى الجزر تكتمل سعادتهما بجزء من كيانه وكيانها، وتلك الأنامل الدقيقة التي يكتمل بها أضلاع المثلث، أفكارها ومشاعرها دائمة التبعثر، أحيانًا كثيرة هو ألمها، وقلما يكون الأمل.

ترى ما الذي يبدد الحب، وما هو السبب الذي يجعله أكثر اشتعالًا؟

فالواقع لم يكن أشدَّ قسوة من قلبه المتزاحم بالكثيرات، لم يعرْ تلك الحسرة والمرارة التي تتجرعها ولا ذلك الأمل الممزوج باليأس أيَّ اهتمام.

ترى ما الذي جعلني أتحمل ذلك الشخص؟

الحب يا عزيزتي، يجعلنا لا نبصر العيوب، يسلبنا عقولنا في رحلته المستمرة للسعادة المؤقتة، لكن هذا عذاب للنفس التي لا تستحق غير أن تأخذيها في أحضانك مهدهدة لها في محاولة لإشعارها بالأمان.

عادة ما تُحدِّث نفسها أثناء حيرتها لتحاول إيجاد أدلة للخروج نحو الطريق الصحيح، حقًا لا يستطيع أحد استيعابك أكثر من نفسك، نبحث في إحدى زوايا النفس عن ذلك البريق الذي نتشبث به ليخرجنا من تلك المتاهة إلى التحرر اللامتناهي.

استلقت على أرض غرفتها بعنينين محملقتين في سقف الغرفة المزركش باللون الأبيض، شارعة ذراعيها محاولةً إخراج ذلك الزفير الممتلئ بكل ألوان الشقاء، نظرت إلى السراب المرسوم بعناية فائقة في روحها، وجدت كل أحلامها المتبددة أمامها، نظرت حولها لم ترَ غير أنها مجرد نبتة صبار في صحراء لا انتهاء لها.

علاقتها بوالديها وأشقائها هادئة لا يشوبها أيَّ توترٍ، تمتزج بالحب والغفران والتلقائية والمرح، لكنها كانت دائمة الافتقاد لحب أخر، فارس يقظتها الدائم الذي سيحول حياتها إلى ألوان أشد ازدهارًا.

جميع صديقاتها وزملاء دراستها قد تزوجن ورزقن أطفالًا يزيدون الحياةَ بهجة من حولهن، لم تدركها الغيرة مطلقًا منهن، لكنه المجتمع العقيم الذي يحيل كل الجمال إلى تلوث لم يترك شيئًا إلا تدخل به، حتى قلوبنا يريدون السيطرة عليها والتحكم بعدد نبضاتها، انخرطت في بكاء شديد.

الهواء أصبح نادرَ الوجود بالمكان، بوجود تلك الأفكار أصابتها نوبة من ضيق التنفس وتلاشى نبضها حتى غابت عن الوعي.

لم تدرك كم مرَّ عليها من الوقت في تلك الحالة، أفاقت وشعرت بغربة تعتري كيانها، هشاشة تنبض بروحها، انتقلت إلى سريرها جالسة بوضع القرفصاء، ورأسها يتوسد قدميها، عاودتها نوبة البكاء مرة أخرى.

همست لروحها في حنو عظيم: سأصبح أفضل يومًا ما.. مجرد وقت وسأستعيد نفسي.

تكوَّرت حول نفسها ليأخذ جسدها وضع الجنين، احتضنت روحها لتطمئن.

لا أعلم لماذا نأخذ وضعية الجنين عندما تعترينا هشاشة بالروح، هل لأننا حينها نجد أن الدنيا أضيق علينا من أرحام أمهاتنا؟ أم لأننا نشعر بالأمان أكثر والاقتراب من أنفسنا أكثر؟

غاصت في أفكارها حتى سلبها النعاس إحساسها بالمكان والزمان.

فور استيقاظها، توجهت للاغتسال حين غمرتها المياه، لم تدرِ هل كانت تزيل التعب عن جسدها أم عن روحها؟

أخذتها دوامة من الأفكار، من الحيرة، من اليأس، من الحياة، من الموت، تلاشت حولها كلُّ الأصوات، لم تسمع إلا ذلك الصوت داخلها يحفزها على أن تتخلص من هذه الحالة الفوضوية التي سكنت نفسها: لا بد وأن أستعيد نفسي، أرواحنا لم تخلق لكل هذا العذاب.

تنهدت بعمق وزفرت ذلك اليأس بعيدًا عن روحها، أسفر عن راحة عميقة، لم تشعر بعدها بأيِّ شيء. انتهت من تطهير أوجاعها بنفس العناية التي تجرعت بها تلك المرارة، خرجت من الحمام متوجهة لغرفتها مباشرة دون الالتفات لحديث والدتها الذي يدعوها لتناول بعض لقيمات يُقِمنْ أنفاسها.

أمام مرآتها تأملت جيدًا تلك الملامح الباهتة التي لا تشبهها في أي شيء، وبدأت بتمشيط شعرها الكثيف، شديد السواد، عميق اللمعان. أمعنت النظر على تقاسيم وجهها وهناك رأت

شخصًا آخرَ، رأت شخصًا يظهر عليه ملامح الحب والحياة، ربما كانت تلك الهالة تخبرها بأنها ستحررها من تلك السلبيات، ربما كانت رسالة من أعماقها تخبرها بأنه لم يفت الأوان بعد.

ابتسمت ولأول مرة منذ ما يقرب من عامٍ تبتسم ابتسامتها الساحرة التي ملأت وجهها بالحياة ممزوجًا بحمرة خفيفة أضافت لها سحراً بديعًا.

انتهت من تمشيط شعرها، رشَّت بعضًا من عطرها المحبب لها، ذو الرائحة الخفيفة الهادئة، توجهت لمكتبها المثبت في أحد أركان غرفتها، وقد اختارت مكانه مواجهًا للنافذة؛ كي يضيف إليها شعوراً بالسلام عند مشاهدتها للسحب تتهادى بدلال على عتبات السماء، سحبت الدرج بهدوء كما اعتادت أن تفعل عند فتحه، أخرجت دفتر يومياتها وقلمها الذهبي الأنيق الذي أهداها أبوها إياه في ذكرى مولدها مع بعض الكلمات المحفورة بقلبها.

السعادة داخلنا وتوجد في أدق تفاصيل حياتنا، إن حاولنا أن نبحث عنها حتما سنجدها؛ فهي دائمًا بالقرب منا، فقط تنتظر المحاولة.

***

الماضي سياج مؤلم، يفصلنا عن العالم، بل يفصلنا عن أنفسنا.

القطار

لم تأخذ في حقيبتها الكثيرَ من الملابس، بعض من النقود التي كانت قد ادخرتها، وبطاقة ائتمانها، مسحت جدران حجرتها بنظرة وداعٍ، حاولت السيطرة على دموعها دون جدوى؛ فقد خانتها دمعة محتبسة بين جفونها، خبأت وجهها بين كفيها.

في لحظة تراجع عن قرارها، مسحت دموعها المتأنقة، قاومت رغبتها في الانسحاب، وبنظرة أخيرة ممزوجة بكثير من الجرأة والشجاعة ودعت غرفتها وأمسكت مقبض الباب فتحته ودلفت خارج الحجرة. في اتجاهها لآخر خطواتها داخل هذا المكان الذي طالما كان شاهدًا على كل انفعالاتها وبراءة طفولتها ولهوها وحتى مرح شبابها، لم تستطع أن تلقي النظرة الأخيرة على والديها، بل أسرعت في اتجاه الباب الرئيس، فتحته وخرجت مسرعة، هبطت الدرج بخطى متثاقلة، وأفكار متناقضة، وقرار لا رجعة فيه، لم تشأ أن تغلق هاتفها؛ لإيمانها الشديد أنها ليست هاربة، بل ذاهبة في رحلة البحث عن نفسها رغم أنها لن تستطيع حسم مدة رحلتها، لكنها حتما ستعود.

تلك الأفكار المتراكمة كحمل الصيف في قلوب عاشقي الشتاء، صاحبتها طريقها.

قادتها قدميها لمحطة القطار، لم تَعُد الخطة مسبقة لوجهتها، فهي ذاهبة في رحلة عشوائية الزمان والمكان، أرادت أن تبتاع تذكرة لأيِّ مكان، مجرد وصولها لشباك التذاكر، سألت عن أقرب رحلة ستنطلق من المحطة، علمت أن القطار سيتحرك بعد عشرِ دقائق متوجهًا إلى الإسكندرية.

- ماذا؟ الإسكندرية؟

تلك الدهشة التي تدفقت لقلبها عند سماعها اسم المدنية التي عشقت رائحتها منذ نعومة أظافرها، ربما أرادت الأقدار تحقيق أمنيه جديدة من أمانيها، أن تعيش في أكثر مدينة كانت شغفها الأول والأخير.

لم تتردد لحظة، أخذت التذكرة وتوجهت مباشرة إلى لقطار، لم تجد الكثير من المسافرين به، كان هادئًا أنيقًا في سكونه، اختارت أكثرَ الأماكن المنعزلة لتختفي عن العيون المتلصصة المليئة بالفضول. اختارت مربع لم يسبقها أحد في الجلوس عليه، تركت حقيبتها على المقعد

المجاور لها وجلست هي بجوار النافذة؛ كي تراقب الطريق، وتسابق الشجيرات الهاربة مع الزمن كهروبها من اليأس.

رحلتها إلى الإسكندرية ستستغرق ما يقرب من ثلاث ساعات متواصلة أو أكثر، لم تشأ أن تحث عقلها على الانشغال بما ستقوم به خلال رحلتها القدرية نحو المجهول.

تركت دُنيا على عتبات القطار واستبدلتها بدنيا جديدة، ربما دنيا التحرر.

خطر لها ما سيصيب أبويها عندما يقرآن رسالتها.

«هل اتخذتُ القرار الصحيح أم أنني تمردت بشكل سيؤلم الجميع؟».

قاومت دموعها هذه المرة وانتصرت عليها، أيقظها من تلك الحيرة صافرة القطار لتعلن لها عن ميلاد حياة جديدة، ستخطو بها بمفردها، وأخيرًا هو قرارها ولن تندم عليه، فقد كان ما كان.

لكن قلبها دائمًا يؤلمها من أجل أبويها وشقيقاتها، فلديها شقيقتان، سيحاسبهم المجتمع بفعلتها، ربما ستُطلق أختها ويتشرد أطفالها، ولن يتقدم أحد لخطبةِ شقيقتها الصغرى، لكنها قد اتخذت قرارها دون التفكير فيمن حولها.

الآن ماذا يفيد؟

تطايرت دمعة دافئة أثارت داخلها الحنين والندم على فعلتها، فهي ستسبب لهم المتاعب، لكن يومًا ما سيتأكد الجميع أنها لم تتعمد أذيتهم.

لا بأس، سيتفهم كلٌ منا الآخر.

***

للسعادة علامات استفهام كثيرة لا نستيطع الإجابة عنها، لكننا نشتاقها دائمًا حتى ولو كانت مؤقتة.

في الحديقة

كعادتها تعانق روحها أزهار حديقتها، اعتادت على وجودها الأشجار وكل شيء يصيبه التساقط إذا غابت عن موعد زيارتها لتلك الحديقة، تتأبط حقيبة يدها التي لا يوجد بها سوى الكتب، وبعض النقود، وهاتفها النقال. كانت تعشق قراءة الروايات الرومانسية دائمًا ترى في أحد أبطالها فارسها الغائب الذي تتمنى لقاءه، الحديقة بها مساحات فارغة كثيرة، لا يوجد بها زائرين كُثُر، وعلى بُعد شجرة ضخمة بها جزع مبتور اتخذته مكانًا مفضلًا للقراءة؛ حيث لن يستطيع أحد بتر تدفق مشاعرها مع قراءة سطورها المميزة. نظرت إلى جزعها المفضل بسعادتها الدائمة لرؤيته، جلست وربتت عليه بخفة وحنان وابتسمت ابتسامتها الساحرة، أخرجت كتابها من حقيبتها فتحته عند الصفحة التي توقفت عندها من الأسبوع الماضي، فموعد زيارتها للحديقة هو موعد قراءتها للروايات المفضلة والمحببة لقلبها. استندت برأسها على الشجرة وشرعت في القراءة لتأخذ دور بطلة الرواية بكل تفاصيلها، لفت انتباهها ظلَّ أحد الأشخاصِ منعكسًا على صفحات الكتاب، رفعت رأسها لترى شابًا به مسحه من وسامة، طويل القامة، ممشوق القوام بسماره الخفيف وتلك البشرة الصافية، يضع إحدى يديه في جيب بنطاله الجينز أسود اللون، يرتدي ساعة أنيقة فضية اللون، ونظارة شمسية تبدو من النوع المعتاد ارتداءه عند الرجال، لكنها أضفت عليه لمسة من سحر لم تستطع تمييز لون عينيه من خلفها، شعره يميل إلى البني الغامق، يداعبه الهواء فيطير على أحد الجانبين ثم ينسدل على جبينه في نعومه تأسر القلب.

غضَّت طرفها خجلًا وهمت بالانتقال لمكان آخر، استوقفتها كلماته الصادرة من صوت ناعم يمتزج حنانًا:

- ممكن أتطفل وأعرف بتقرأي أيّ نوع من الكتب غير الروايات؟
- أنا لي فترة بشوفك هنا، وتقريبًا عرفت ميعاد وجودك والميعاد اللي بتمشى فيه، وبرغم إن الفضول دفعني أخرج وراكِ وأعرف ساكنة فين بس فيه حاجة كانت بتمنعني.
- اسمي مازن تقدري تقولي لي ميزو
- .....

نظرت له بخجل وعلامات التعجب والاستنكار تكسوها، انتفضت واقفة محتضنة كتابها بين زراعيها وخطواتها تحثها على الانصراف.

- عارف اللي في بالك دلوقتي، بتسألي نفسك إيه الشخص دا؟!

اقترب منها قليلًا كي يوقف خطواتها المنصرفة، بكل ثقة وليونة نظر إلى عينيها مباشرة، أربكتها نظرته، وبصوت حاني:

- باين في عنيكِ السؤال، بكره تعرفيني كويس، وهتحبيني كمان.

كادت أن تنفوه لتنعته بالغرور، وكأنما قرأ الكلمات بعينيها، ابتسم ابتسامة ساحرة جعل الصمت يتملكها، أسرع بإخراج دفتر صغير وقلم من جيبه ودَوَّن شيء بها، فصل الورقة المكتوب بها عن رفيقاتها ومد بها يده لتأخذها، أكمل حديثه:

- دا رقمي، في يوم هتكلميني.

كادت نظراتها الممتزجة بالدهشة والغضب والاشمئزاز والثورة أن تحرقه، لكنها فضَّلت الصمت على أن تدخل بمجادلة لا فائدة منها، أسرعت خطاها نحو الباب هاربة من ذلك

الفضولي الذي اقتحم سعادتها بجرأة لم ترَها من قبل، تلعثمت خطاها الهاربة حتى أنها كادت تصدم بالباب المؤدي إلى خارج الحديقة.

ابتسم مازن وعينيه ترسم موعدًا جديدًا، أو بالأدق كأنما انتهى لتوه من موعد غرامه العنيف المشع بحرارة الرومانسية.

لم تكن هذه نفس حالة دنيا بل كانت بأفكار مشوشة نحو ذلك المجهول الذي باغتها دون سابق إنذار، أثناء انتظارها لإحدى سيارات الأجرة كي تستقلها لمنزلها، نظرت خلفها بداخل الحديقة لتطمئن أنه لن يلاحقها، لكنه كان يقف في نفس المكان الذي تركته به بتلك الثقة وذلك الشموخ وتلك الابتسامة التي أربكتها كثيرًا، لمحت سيارة قادمة أشارت إليها بلهفة كأنما تحثها على الهروب من كل علامات الاستفهام التي أحاطت بكيانها فجأة، لحظات قليلة حتى توقفت السيارة أمامها مباشرة، ألقت بنفسها داخل السيارة، سألها السائق عن وجهتها:

- على البيت لو سمحت.

بصوت يمتلئ بالمزاح أجابها:

- معلش قولي لي العنوان علشان نسيته من كتر المشاغل.

كساها الخجل من توترها الذي أفقدها التركيز وأنساها أن تذُكر العنوان للسائق، أخبرته بالمكان المقصود، دقائق قليلة حتى وصلت أمام منزلها، فتحت باب السيارة، أخرجت إحدى قدميها تليها القدم الأخرى، أعطت السائق النقود، لم تشأ أن تصعد إلى شقتها؛ حيث كان يعتريها شيءٌ من الانزعاج رغم اعتيادها على مضايقات بعض الشباب لها إلا أنه لم يصل أحد إلى جرأة ذلك المدعو مازن

- ميزو؟!

بطريقة ساخرة انطلق عبر شفتيها الاسم، أخرجت هاتفها من حقيبتها لتهاتف صديقتها المقربة نهى لكنها لم تحدد ما ستقوله لها، طرقت برأسها مفكرة:

- هل حقا ستحبه؟ يا لجرأته أو ثقته بنفسه أو غروره، ربما وقاحته.

***

لن نستطيعَ تغيير الواقع ما دمنا جزءًا منه.

أبي الحبيب الغالي

«لم يكن بمقدوري مواجهتك؛ فأنا أعلم جيدًا أنك تخشى عليَّ من البشر ومن الزمن، لكنني أصبحت ناضجة بما يكفي لحماية نفسي، وهذا ليس استغناءً عن حمايتك، فأنا لن أستطيع إيجاد الأمان بعيدًا عن أحضانك، لكنني بحاجة إلى الاختلاء بنفسي، وأعدك بأنني سأحافظ على ثقتك بي ما حييت، لم أفكر يومًا بالهروب، لكنني أريد الاستقلال قليلًا، أو بمعنى أدق: أريد تحمُّل مسؤولية نفسي، وسأظل دائمًا على تواصل معكم حتى يأتي اليوم الذي سنتجمع فيه قريبًا.

أرجوك يا أبي أن تتفهم حالتي، وأن تساعدني ولا تسخط عليَّ، فثقتي بحنانك وتقبُّلك لكل أفكارنا هما ما دفعاني للقيام بتلك الخطوة الأهم في حياتي.

أرجوك يا أبي أن تبارك خطواتي، فبغير رضاك لن أكون».

ابنتك المحبة
دُنيا

ما زال ممسكًا بالخطاب دون التنفس أو التفوه بحرف واحد يزيد الأمور توضيحًا، أعاد النظر مرات ومرات على كل حرف به ليتفهَّم المضمون، بعد صمت طويل كاد يتحول بُكَمًا، طوى الأب الخطاب، وجاء صوته الهادئ من أعماق متألمة تحاول السيطرة على الأجواء بهدوئها المعتاد، قطعت كلماته حبال الصمت والخوف:

- أنا عارف إنها مايتخافش عليها، بنتك قوية.
- بس أنا قلبي مش مطاوعني أصدق إنها بعيد عني.
- ادعي لها يا أم خالد.

قامت بخطوات متألمة لتجلس بجواره على الأريكة المواجهة لها، ربتت على كتفه، كانت على يقين بأنه يعتصر ألمًا، ولكنه يتظاهر بالقوة أمامها حتى تتماسك، فقد كانت المفاجأة حدثًا عظيمًا عليهم، فلم يكن متوقعًا من دنيا طبقًا لطبيعتها الهادئة الحانية أن تفعل ما فعلت.

خيَّم عليهم الصمت مرة أخرى وكأن كل منهم يقرأ ما يدور بقلب وعقل الآخر، نظراتهم المتبادلة المليئة بالشفقة والخوف والقلق كادت تقتلهم.

وإذا بباب الغرفة المجاورة لغرفة دنيا يخرج منها شاب طويل القامة في منتصف العشرينيات من عمره، قوامه ممتلئ قليلًا، ذو شعر يحاكي الليل في سواده وبشرة سمراء يتثاءب، خرج مرتديًا بيجامة منزلية أنيقة، رمادية اللون بخطوط بيضاء على جانبي السروال، يضع على إحدى كتفيه منشفة متوجها إلى الحمام:

- صباح الياسمين على أجمل أم خالد وأجمل أبو خالد.

حاولت الأم السيطرة على انفعالها وابتسمت له في تودد، وهمت من مجلسها متوجهة إلى المطبخ، وأثناء حركتها أخبرته أنها ستصنع له الفطور إلى حين انتهاءه من صلاة الصبح.

دفع أبوه بالخطاب داخل جيبه حتى يحاول إيجاد مبرر لاختفاء دنيا عن المنزل هذه الفترة.

صوت باب الغرفة المجاورة للأبوين يغلق بإزعاج من الواضح أن فاطمة استيقظت بصخبها اللامبالي لمن حولها، في الأساس هذه الغرفة لمايسة الشقيقة الكبرى وانتقلت لها فاطمة بعد زفاف مايسة منذ حينها أصبحت دنيا لا تتشارك غرفتها مع أحد.

وجدت أباها يجلس في فناء الشقة على غير عادته صباحًا، لم تندهش كثيرًا فهي لا تبالي بما يحدث حولها.

- صباحو بقى يا قلبي، قاعد لوحدك ليه ياجميل؟ هي توته نيمتك بره الأوضه النهاردا؟

بعد أن طبعت قبلتها الصباحية على جبينه، بكل تلك القوة التى جعلها لم تلاحظ التغيير عليه، بادلها الضحك على كلماتها:

- رُوحِي خدى حمامك علشان تفطري.
- مش بقول لك توته عملت لك حاجة، الحمام منور يا فيرو يعني أكيد أكيد خالد هو اللي جوه وقدامه لسه ٩٩ ساعة، هه وأدي قاعدة.

جلست متربعة على أحد الكراسي المجاورة لأبيها تمازحه من حين لآخر، بينما هو يحاول السيطرة على شروده حتى لا يلفت انتباهها، سحب الجريدة من أعلى المنضدة حتى يهيم في واقعه دون ملاحظة أحد، تظاهر بانشغاله بقراءة الأخبار رغم أن عيناه لم تتحرك عن السطر الأول، لحظات وظهر أمامهم خالد يتحدث إلى والدته وهو في طريقه لغرفته:

- الفطار بسرعة يا ماما لحد ما أغير لبسي هموت من الجوع.

انتفضت فاطمة من جِلستها متوجهة للحمام، دخلت وخرجت في لحظات قليلة كعادتها دائمًا، تضع القليل من الماء على وجهها وتخرج متجهة إلى السفرة منتظرة الطعام، فهي مدللة المنزل وآخر العنقود كما يقال، في الصف الثاني الثانوي، فتاة ذات بشرة خمرية اللون، متوسطة القامة ممشوقة القوام، تملأ المنزل بالحيوية والمرح إذا تواجدت به، تهمل دراستها

أحيانا، تهتم كثيرًا بالمسلسلات الكوري، كحال جميع المراهقات في عمرها، فتى أحلامِها في تغيير مستمر مع انتهاء مسلسل وبداية آخر، تنادي بأعلى صوت:

- يا ماما الفطار بقى، دايما مجوعنني في البيت دا.

الأم قادمة وبيدها الأطباق، ويقوم الأب متوجها للسفرة، يأتي خالد وبلهجة كلها تعجب من أفعال أخته؛ يخبرها أن تقوم بمساعدة والدتها، لا تعير كلماته انتباه؛ لانشغالها بتناول بعض الطعام من جميع الأطباق، انتهت الأم من إعداد السفرة وجلست بجوار الأب، بدأ الجميع بتناول الفطور وفجأة تركت فاطمة من يدها الطعام المقرب من فمها، وهمت واقفة وبأعلى صوت بدأت بالنداء على دنيا:

- دنيا... كل دا نوم... الأكل هيخلص.

الفصل الثاني

للماضي رائحة أحيانًا نتنهد اشتياقًا لها، أو نختنق إذا مرت ذكراها بخاطرنا.

القطار

صوت هاتفها أفاقها من شرودها المستمر وأفكارها اللاهثة، نظرت للشاشة لتقرأ عليها ماما دون تردد ضغطت زر بدء المكالمة وكأنها احتضنت العالم لمجرد ظهور اسم والدتها على شاشة هاتفها، شعرت بالأمان الذي افتقدته لحظة خروجها من المنزل:

- ألو
- دنيا، أنتِ فين؟

صمت طويل يسيطر عليها رغم اقتناعها التام بقرارها.

- دنيا أنتِ معايا؟
- معاكِ يا ماما، أرجوكِ يا ماما سامحيني، وخلي بابا يسامحني ويدعي لي، ماما أنا ماهربتش منكم، أنا هربت من نفسي علشان أدور عليها، أنا مش ممكن أهرب منكم ومن بيتي أجمل مكان بحبه.
- طب ليه سبتي البيت؟

جاءها السؤال بصوت أبيها ممتلئًا بعلامات استفهام حانية:

- بابا أنا كتبت كل حاجة في الرسالة، سامحني يا بابا.
- مسامحك يا بنتي... أنا قُلت لخالد وفاطمة إنك هتقعدى مع عمتك شوية.

ساد الصمت مرة أخرى، فهي على دراية كافية بتعقُّل أبيها وحكمته في معالجة الأمور المعقدة، وأنه سيتجنب إظهار صورتها بشكل مريب أمام الجميع، ابتسمت رغم مقاومتها المستمرة لدموعها لكنها أبت هذه المرة إلا أن تنهمر دون إنذار، جاءها صوت أبيها مرة أخرى:

- ربنا معاكِ يا بنتي، خلي بالك على نفسك وإن شاء الله نتقابل قريب جدًا.

رائحة أبيها تتجول بالأنحاء، رأت دموعه التي حاول جاهدًا أن يخفيها، رغم وضوحها بصوته، انهارت في موجة بكاء لم تعتدْها من قبل، صوت عجلات القطار كانت تؤازرها وتنتحب معها، قليلًا تهدأ كثيرًا تعلن التمرُّد على كل شيء باحتكاكها بالقضبان الحديدية وارتفاع صراخها كأنما تعترض معها على الحياة.

رفعت رأسها بشموخ مسحت دموعها المتدفقة، أعلنت لنفسها أنها لم تفعل إلا الصواب فلا داعي للقلق من شيء، بداخلها مؤمنة بأنه يومًا سيأتي متوسلًا راجيًا الرجوع لعهدهم القديم، غاصت في كرسيها واستندت برأسها على المقعد حالمة مبتسمة كما هي عادتها، أغمضت عيناها في استسلام عميق لقدرها المجهول.

***

الحب: هو ذلك الملاذ الذي تهفو إليه أرواحنا.

في الحديقة

- أنا حاسه إني بخون صاحبتي الوحيدة.
- إيه اللي بتقوليه دا!

وقعت هذه الكلمات الصاعقة على رأس خالد فهشمت داخله جميع الأفكار، وبددت السعادة التي رسمها في طلبه الخروج مع حبيبته ليتنزها، وقد اختار هذه الحديقة تحديدًا؛ لأن نهى تعشق الأماكن الطبيعية وكذلك خالد، ولأن موقع الحديقة بعيد تمام البعد عن منزلها، وبذلك يضمن أن يحد قليلًا من أيّ مشاكل ستواجهها، تحيطهم الأشجار من جميع الاتجاهات، يسيران جنبًا إلى جنب بيد كل منهم زجاجة صودا غازية.

أطرق خالد برأسه أسفًا لمقولة نهى، وبدورها أخبرته أنها لن تستطيع كتمان ما بينهم عن دنيا عشرة عمرها فشعورها بالذنب يمزقها.

أخبرها أنه قريبًا جدًا ستتحسن ظروفه لأنه بدأ مشروعًا صغيرًا مع صديقه أحمد وبأول أرباحه سيتقدم لخطبتها وبذلك لن يكون هناك أيّ أسرار تخشاها.

وافقت على مضض دون أن تُشعره بألمها، استأذنته أن تأتي إلى منزلهم لزيارة دنيا، أخبرها أنها سافرت المنصورة إلى زيارة عمتها وبأنها ستتغيب فترة هناك؛ لأن عمتها تحبها كثيرًا لأنها أقرب أبناء أخيها شبهًا بها ولن تتركها بسهولة.

أصابها الحزن من صديقتها؛ لأنها ولأول مرة تقوم بفعل شيء دون إخبارها، أو أنَّ خالد يخشى أن أخبرها بما بيننا؟ فمنعني من زيارتها حتى لا أجد معها الفرصة للبوح.

قررت الاتصال للتحقق من هاجسها لكنها آثرت أن تخفي في نفسها هذا القرار حتى لا يمنعها خالد من اتصالها بدنيا.

لم تعبأ بما يجول برأسه هو أيضًا يهيم في دنياه، كل منهم يتواصل مع دنياه التي تؤلمه وتؤرِّق حياته.

سارا كثيرًا في أرجاء الحديقة يؤنسهم الصمت إلى أن انقضى نصف النهار، طلب منها المغادرة، بدا الطريق أطول كثيرًا عن المعتاد، لم تكن هذه هي النهاية، بل بداية كل شيء.

ودعّا بعضهم البعض بنظرات ممزوجة بالحب والأحزان على أمل لقاء جديد، سار كل منهم ولأول مرة في اتجاه عكس اتجاه الآخر.

دخلت منزلها حائرة، متهاوية الآمال، وجدها والدها بهذا الحال، أثارت الشكوك حفيظته، دخل الغرفة خلفها ليستعلم ماذا حل بابنته؟

بدأت قص الموضوع من أول يوم أخبرها خالد بما في قلبه تجاهها ومخاوفها وألمها، وإنها لن تستطيع إخفاء هذا الأمر تحديدًا عن صديقتها الوحيدة، أخبرت أباها بشكوكها تجاه خالد عندما رفض أن تتطلع شقيقته على الأمر.

أخذها الأب بين أحضانه ليضيف لها الأمان التي تحتاجه هذه اللحظة تحديدًا، وبحنو الآباء غير الطبيعي بدأ يلمس شعره وكأنما يهدهدها لتنام، أرسل في نفسها الطمأنينة بكلماته المختلطة بالحكمة والحنان:

- على أيامنا يا بنتي، كل حاجة كانت مختلفة، لو شاب عجبته بنت كان يبعت لها الخاطبة أو والدته وكان في شهور بيتم الجواز، دلوقتي لازم يتعرفوا على بعض ويدرسوا بعض حتى قبل الخطوبة، فيه شباب ماعندهمش ضمير بيستغلوا التعارف دا ويضحك على البنت اللي بتكون واثقة فيه أكتر من نفسها، ويسيب البنت من غير مستقبل تواجه مصيرها بجريمة ثقة، وفجأة نلاقي الشوارع اتملت بأبناء غير شرعيين، حتى الرحمة اتعدمت من قلوب الأمهات وبترمي جزء منها في الزبالة لأنها خايفة الفضيحة ريحتها تطلع.
- يا بابا أنا مابحبش الضلمة، علشان كدا ماكنتش قادرة أبص في عينيك وأنا مخبية عنك موضوع زي دا، ماتعرفش قد إيه أنا مرتاحة علشان قلت لك، عقبال ما أشيل عن قلبي حمل دنيا.

ربت على كتفها وقبَّل جبينها وقبل مغادرته ابنته لذكرياتها:

- سيبي له الفرصة اللي محتاجها، بس فرصة واحدة ولو ضاعت منكم اوعي تزعلي؛ لأنك ساعتها هتكوني عملتِ اللي عليك، واوعي تغدري ما دام وافقتِ من البداية، وما دام بنحب نستحمل ظروف بعض.

كم كانت تحتاج لتلك الكلمات لتقوَى على مواجهة الواقع، لتطمئن أن هناك أعين ترعى أحلامها، ما دام أباها كان يلعب دور الأب والأم والصديق وكل شيء في حياتها بعد وفاة والدتها منذ نعومة أظافرها، تفرغ الأب لرعاية صغيرته، ولم يرغب في الزواج لتعيش ابنته حياة نفسية مستقرة، بعد اجتياز نهى المرحلة الإعدادية، عرضت عليه شقيقته الزواج من جارتها الأرملة، وبإصراره المعتاد رفض لأن ابنته في مرحلة حرجة، ولن تتقبل فكرة امرأة أخرى تشارك أمها أبيها، وإنه غير مستعد نفسيًا لأن تعاني ابنته مرارة زوجة الأب التي دائمًا ما عانى منها في طفولته، امتنعت شقيقته ترشيح أحد مرة أخرى له لرفضه الفكرة كليًا، بعدما باءت كل محاولاتها بالرفض.

ترعرت أمامه نهى حتى تخرجت في الجامعة، ولم يتمَنَ شيئًا أكثر من إسعادها بل ويتفانى في ذلك. أيقنت نهى أن أباها نِعم الأب الذي تحلم به أيّ فتاة، متفهم، محبٌ لابنته.

مسحت دموعها واحتضنت صورة والدها بشدة، قبَّلت الصورة ووضعتها بجوارها على الوسادة، أخرجت هاتفها من جيب بنطالها.

***

أحيانا نحتاج لتغيير الأماكن والاشخاص والأحداث حتى نتمكن من العثور على أنفسنا مجددًا.

الإسكندرية

توقَّف القطار في المحطة ليعلن لها عن بدء رحلة جديدة في حياتها، كاد يقتلها كل شيء؛ الخوف من المجهول الذي لم تضعه في حساباتها، سحبت حقيبتها من على المقعد، ترجلت من القطار وهي لا تعلم وجهتها، بدأت تتثاقل خطاها وتتهاوى، أجهدها التعب من السير بحثًا عن مكان تستأجره، سارت كثيرًا في شوارع الإسكندرية العتيقة دون جدوى، فقد أوشكت الشمس على المغيب وحتى الآن فشلت كل محاولتها في البحث عن مأوى أو عمل.

لمحت من بعيد أحد شواطئ الساحرة خاليًا من البشر، فعادة الأشخاص في الليالي الشتوية الاختباء بعيدًا عن براثن الصقيع.

سحبتها قدميها دون مقاومة منها باتجاه ذلك الشاطئ لتستريح من مشقة السفر والسير بلا فائدة، ومشقة اليأس أقوى.

سكينة المياه مع انعكاس هدوء السماء، أضافت لروحها الدفء الذي افتقدته منذ ساعات، على جانبي الشاطئ تراصت المظلات في هدوء متناغم يداعبها نسيم الهواء فتتمايل في خفه.

سحبتها قدميها دون مقاومة منها ورغم الإعياء الواضح في خطواتها لأحد الكراسي المتراصة على الشاطئ، أفلتت حقيبتها أرضًا، جلست بهدوء، أزاحت رأسها خلفًا ملاصقة لظهر الكرسي، محاولةً الاسترخاء غاصت أكثر داخله، أغمضت جفونها، ترآت أمامها صورة أبيها مبتسمًا كعادته، بدأت تشعر بهدوء يسري في جميع أوصالها، استسلمت لمداعبة النوم لها،

أصوات الأمواج تدعوها للاستيقاظ، أسدلت جفونها المتعبة مرة أخرى، همسات خفيفة تطرقت لأذنيها، صوت ذكوري ممتزج بصوت الأمواج:

- يا آنسة.. يا آنسة.. يا أستاذة.

فتحت عينيها بثقلٍ واضح، انتفضت منزعجة من استرخائها، أطرق رأسه أسفًا وبدا عليه التوتر من فعلته، تلعثم كثيرًا قبل أن تنطلق عبر شفتيه الكلمات:

- أنا آسف.. بس الجو بدأ يبرد وشايفك لوحدك وخفت الليل يجي وأنت نايمة هنا.

تحاملت على عينيها وفتحتهما؛ لترَى أمامها شابًا أنيقًا طويلَ القامة، ممشوقَ القوام، عيناه خضراوين، ببشرة بيضاء، وابتسامة ساحرة كأنما القمر تجسد لها في ابتسامته، شعره البني المتطاير مع نسمات الهواء الساحرة، بيده كوب ورقي يبدو لها من رائحته المتطايرة أنه شرابَ اليانسون، يتراقص الدخان خارجًا من الكوب ليعلن على أن المحتوى ما زال يحتفظ بسخونته، بدأت ترتجف من شدة التوتر، مالت على حقيبتها لتأخذها وتذهب من هذا المكان، أثناء اعتدالها ومن شدة توترها اصطدمت رأسها بيده الممسكة بالكوب؛ فوقع على ملابسها، قاومت رغبتها في البكاء، بدأ يتصبب عرقًا من الخجل الذي داهمه وشعر بذنب يمزِّق قلبه تجاهها.

- أنا آسف مش قصدي.
- أنا اللي آسفة دي غلطتي.
- شكلك مش إسكندرانية، وتقريبًا ماعندكيش مكان هنا.. أنا آسف بس الشنطة اللي معاكِ بتقول كدا، تسمحي تيجي معايا تغيري لبسك، أكيد مش هتقعدي به متبهدل كدا، البيت قريب من هنا جدًا.

أشار إليها بيده أن المنزل أمامها مباشرة أمام الشاطئ، رمقته بنظرة قاسية حاقدة.

***

مهما كنا نتظاهر بالقوة، تعترينا لحظات نخشى فيها ذلك المجهول.

في القاهرة

- قلبي واكلني يا أبو خالد، بنتي أول مرة تغيب عن عيني، ومش عارفة هترجع امتى؟

يتظاهر الأب بأنه سينام، يعطي ظهره للأم حيث يستطيع أن يفكر في هدوء بعيدًا عن ثرثرتها، رغم صمتها طوال اليوم إلا أنه كان يعلم جيدًا ما يجول بقلبها، ومدى المقاومة غير عادية التي أظهرتها في احتباس دموعها، لم تسطع جفونها أن تستجيب لمداعبات النوم لها، بدأت تتقلب يمينًا ويسارًا حتى باغتته بجملتها:

- نامي يا أم خالد دعواتك محاوطاها وهتحميها.
- وأنت هتعرف تنام؟

أخبرها بأنه يثق في ابنته، وأنه لن يخشى عليها، كل ما يخشاه أن لا تتعبها الدنيا أكثر من ذلك، وأنه يتمنى أن تجد الراحة التي تسعى لها قريبًا حتى يعود شمل الأسرة من جديد.

جلست وجذبت هاتفها وأخبرته أنها تريد سماع صوتها حتى يطمئن قلبها، وتستطيع أن تعثر على النوم الذي لن تستلم له ما دام قلبها لم يطمئن على ابنتها، انصاع لرغبتها لأنه يعلم مابها جيدًا، أثناء محاولتها الاتصال، وجدا طرقات خفيفه على باب غرفتهم.

- ادخل.

يُفتح الباب لتطل فاطمة برأسها متوجة مباشرة إليهم، لتطلب من والدها نقود لشراء بعض اللوازم التي تحتاجها للدروس، يمد يده تحت وسادته ويخرج ورقه فئة ٢٠٠ جنيه.

- خدي هاتي اللي أنتِ عايزاه.
- طبعًا يا فيرو مش عايز الباقي، قلبي وربنا، خير يا توته سيباني كدا من غير ما تتكدي علي زي كل يوم.

لم تعِر كلماتها أيّ اهتمام لدوامتها المتهاوية برأسها، وقلبها المتآكل، أشاحت بنظرها بعيدًا باتجاه الشباك حيث تتراقص النجوم في خبايا السماء، نطق قلبها مرارًا: يارب.

- أقطع دراعي يا فيرو إنكم متخاصمين، عمومًا بكره المستخبي يبان يا جميل، وأنتِ يا توته براحتك على الآخر دا ماكانش عيش وزيتون علشان تخبي علي.

همت بالخروج من الغرفة، أغلقت الباب خلفها وفتحته مباغتة وانطلقت منها قهقهة بلهاء:

- صالحها يا فيرو ماتنيمهاش زعلانة، شوفتِ يا توتة مش بتهوني علي هخليه يصالحك ادعي لي بقى وعدي الجمايل.

أغلقت الباب خلفها، لحظات صمت قاتلة حالت بين دموعها، ربت على يديها بحنان معلنًا لها أن موعد الاتصال قد حان. قلبت في الشاشة لتعثر على رقم ابنتها وبالفعل وجدته وبيدان مرتعشتان، ضغطت بدء الاتصال، بينها وبين سماع صوت ابنتها لحظات، مرت عليها أعوام بل مئات الأعوام، انتهت مدة الاتصال دون الرد من دنيا مما زاد من التوتر في

الأجواء، وقع الهاتف من يدها، أمسك الأب الهاتف وضغط بدء الاتصال، لم يسمع صوت الجرس حتى جاءت الاستجابة من الطرف الآخر:

- أيوه يا حبيبتي، طمنيني عليكِ.

لم تشعر سوى بأنها اختطفت الهاتف من زوجها، وبقلب متلهف تسارعت الكلمات على لسانها دونما أن تعطى لها فرصة بالرد. انهت المكالمة وأخذت الهاتف بين أحضانها، وتمددت وغاصت في نومها، حاول الأب أخذ الهاتف من يديها لكنها كانت تحكم قبضتها عليه، كأنما تخشى هروب ابنتها من بين أحضانها.

لم تكن عادتها أن تنام قبل صلاة العشاء إلا إذا كانت منهكة الروح.

لم يحاول إيقاظها وتركها؛ لأنه يعلم أنها لن تنام كثيرًا، وستستيقظ لأداء فريضتها.

ربت على كتفيها وأحكم عليها الغطاء، وأغلق نور الغرفة وتمدد وقلبه يردد بين ثناياه: «الشكر لله»، ويناجيه أن يتولى ابنته برعايته التي ليس بعدها رعاية.

***

تسقط من حياتنا أشياء، لنبحث عن أجمل منها، أو ليُلقِي لنا القدر بالفرص الأكثر صدقًا.

في الإسكندرية

أدرك من نظرتها القاسية أنها أخذت كلامه على محمل آخر، انتهت من محادثة والدتها هاتفيًا وضعت هاتفها بجيب بنطالها وهمت بالذهاب وعلامات الحزن واضحة على وجهها، استدار ليقف أمامها مباشرة ونظر إلى عينيها ليبعث لنفسها الهدوء، استوقفتها حركته هذه ونظراته البريئة، أخرج هاتفه من جيب بنطاله وبدأ يقلب في شاشته، ضغط زر الاتصال وضع الهاتف على أذنيه وبدأ المحادثة:

- ألو.. ممكن تنزلي ثواني.. أنا في الشط في المكان اللي بقعد فيه دايمًا.. مانتأخريش.. سلام.

أنهى المكالمة، بدأ ينظر في ساعة يده تارة وتارة أخرى نحو باب الشاطئ، لاحظت دنيا أنه يبدو على استعجال من أمره.

- مش عايزة أعطلك لو وراك حاجة.. اتفضل.
- لا بالعكس مش متعطل.

لم يطل الانتظار حتى لمحها تقترب من الشاطئ بخطاها المتناسقة، فتاة عشرينية، متوسطة الطول، شديدة الجمال، تتأبط طفلة لم تتجاوز عامها الثاني، أقبلت مسرعة كادت أن تصطدم بهم، يبدو على ملامحها القلق الشديد.

- مالك يا ضيا في إيه قلقتني؟!

- اطمني مافيش حاجة.. خدي معاكِ الأستاذة فوق تغير هدومها اللي اتبهدلت وهتبات معاكِ.

نظر ضياء إلى دنيا نظرة آمرة، احتبس لسانها فلم تستطع أن تجيب بالرفض أو القبول فالتزمت الصمت تمامًا.

نظر في عينيها مباشرة ليزيل من رأسها كل الشكوك ويبعث في نفسها الطمأنينة.

- أنا هبات عند هشام النهاردا اتعشوا أنتم.. أنا شربت يانسون.

ابتسم ليكشف عن أسنان شديدة البياض زادت ابتسامته سحرًا، تبادلت دنيا معه الابتسام؛ لأنهما يعلمان تمامًا أن الذي تناول اليانسون ملابس دنيا.

أمسكت حقيبتها وسارت بجوار الفتاة الأخرى وهي مسلوبة الإرادة، لا تدري ما الذي جعلها لا تعترض الذهاب معها.

سارت الفتاتان حتى تجاوزتا طريق السيارات، في الأجواء ارتفع صوت الآذان معلنًا وجوب صلاة العشاء؛ فانشرح صدرها لسماع الأذان وكأن العناية الإلهية ترسل إليها عونًا يمنحها السلام، وبعد خطوات قليلة وصلتا أمام منزل مكون من خمسة طوابق.. يبدو عليه من الطراز المعماري القديم، أزاحت منى الباب العمومي للمنزل، صعدا معًا إلى الطابق الثاني؛ حيث يوجد مسكنهم، أخرجت مفتاحها من جيب بنطالها وأدارته في شق الباب انفتح ودخلت، وقفت دنيا بالخارج وعلامات الخجل تكسوها

- تعالي اتفضلي ادخلي مانتكسفيش دا بيتك.

ذهبت لتضع ابنتها في إحدى غرف الشقة دخلت دنيا بخطوات متأرجحة متشبثة بحقيبتها بكلتا يديها، وبنظرة دائرية خاطفة تعرفت على ملامح الشقة، أثاث أنيق رغم بساطته، منضدة

تتوسط أربعة كراسي مخصصة للطعام، تلفاز حديث يبثّ أحد برامج إعداد الطعام، أريكة محاطة بأربع كراسي مذهبة، خرجت منى من الغرفة.

- يووووووه، أنت لسه واقفة عندك ادخلي اقعدي يا بنتي، بصي الحمام قدامك أهو، ادخلي غيري اللبس المتبهدل دا على ما أكون حضرت لقمة نتعشى بيها.

دخلت الحمام لتبديل ملابسها، عند خروجها وجدت منى على طاولة الطعام بانتظارها وقد انتهت من تحضيره، توجهت نحوها منى وسحبتها من يدها وأجلستها.

- أكيد مش هقول لك كُلي، شكلك ناوية تغلبيني زي مريم.

جلستا على الطاولة وبدءتا في تناول الطعام وتبادل النظرات المليئة بالتساؤلات المبهمة، من جهة منى هي تريد أن تعرف من تلك الفتاة التي تشاركها طعامها بل وستشاركها غرفتها وربما حياتها، وكيف لضياء أن يأتي بفتاة تبادلها الابتسام وهي لا تعرف هويتها.

دنيا تريد أن تعرف من هؤلاء البشر الذين يكرمون شخص لا يعلمون هويته هل هم حقًا طيبون أم أنها وقعت فريسة لبعض من يلتقطون الفتيات من الشواطئ؟!

وبرغم هذا الخاطر إلا أنها استبعدته تمامًا، للبراءة المرسومة على وجه ضياء، أقنعت نفسها أن القدر ساقها لهذا الشاطئ؛ كي يخرجها من دوامتها العبثية التي ألقت بنفسها فيها.

يبدو أن هذه الأسرة المكونة من ضياء وزوجته وابنتهم هم طوق النجاة الذي أرسله الله إليها.

ابتسمت لهذا الخاطر راضية مطمئنة، حمدت الله كثيرًا، بدأت بتناول الطعام في سكينة تامة، بساطة الطعام الموضوع أمامها؛ جعلها تشعر أنها تأكل مع أبيها في منزلهم، لم تشعر باختلاف كبير، فقد كانت وجبتها المفضلة على العشاء، قطعة جبن، وبذور الزيتون الأسود، دائمًا كانت ترفض فكرة تناول البيض المسلوق في المساء وتعشق تناوله صباحًا، وهذا ما

وجدته أمامها على طاولة الطعام، اكتفت بلُقيمات قليلة، قطع صمتهما حديث منى عن برامج الطبخ التي تقضي معظم يومها في مشاهدتها، ووعدتها بأنها ستعد لهم غدًا على الغداء وصفة جديدة شاهدتها اليوم في البرنامج المفضل لها، ابتسما سويًا، بدأت منى في تنظيف الطاولة من بقايا الطعام ووضع الصحون في المطبخ، وساعدتها دنيا في ذلك.

تركت منى لها الخيار في مشاهدة التلفاز معها أو الذهاب لتستريح، آثرت دنيا الذهاب للنوم فقد عانت طوال يومها على كل المستويات.

أغلقت منى التلفاز وذهبا سويًا إلى غرفة النوم، استبدلت منى ملابسها وجلست على الأريكة المقابلة للسرير، أشارت إلى الأريكة بيدها وبصوت دافئ وجهت حديثها لدنيا:

- أنا هنام هنا.. وأنت نامي جانب مريم.. لما هتصحى هاخدها هنا جانبي.
- لا.. أنا هنام على الكنبة، وأنت خليكِ جانب بنتك، مش هينفع أغير نظامكم.
- لا لا اطمني.. دا نظامي كل يوم.. الكنبة حبيبتي الأبدية ورفيقة أحلامي.

ونزولًا على رغبة منى لم تعارضها دنيا وتمددت على السرير بجوار مريم، انتظرت من منى أن تحاول سؤالها عن هويتها أو حتى اسمها دون جدوى، اعتدلت قليلًا في محاولة إثارة أيّ موضوع، ترآت لها منى متنهدة مبتسمة في عالم آخر يبدو أن من مر بخاطرها عطر حبيبها، أسندت رأسها على حافة السرير وشقت أحلام منى مباغتة:

- بنعرف بعض من ٣ ساعات ومانعرفش حتى أسامي بعض!
- اسمي منى بس ضيا دايما بيقول لي: يا أم مريم. لكن أول ما مزاجه يقلب بعرف على طول أول ما يقول لي: يا منى.
- أنا اسمي دنيا من القاهرة، الأستاذ ضياء شكله طيب أوي.
- طيب بس؟ دا أحن واحد في الدنيا، فكرتيني الصبح أروح أوديله الفطار، لأني عارفة إنه مش هياكل ما دام هيبات في المحل لأنه مش هيبات عند هشام.

نامت الفتاتان كل منهما تحمل داخلها مدينة من الحكايا والآمال وكذلك الأحلام.

***

لم تكن مصادفة أن نلتقي بكل هؤلاء الأشخاص في حياتنا، ربما لنتعلم الحب.

الشاطئ

حيث الهدوء الذي يجذبه دائمًا، عشقه للبحر والغموض الذي يحيط به عند ارتفاع أمواجه وانخفاضها في لحظات سريعة؛ ساقته قدماه إلى هناك حيث يكون المنزل قريبًا من نظره الملئ بالقلق، فلأول مرة يترك مريم وأمها بمفردهم دون رعايته.

كثيرًا ما حاول الصعود إليهم، لكنه يتراجع عند تذكره لتلك الضيفة فيشعر بشيء يجثم على صدره، فالبداخل ثلاث نساء دون رجل يحميهم.

دقات هاتفه تخرجه من حيرته وقلقه، تضئ شاشة هاتفه لتكشف له عن اسم المتصل:

- أيوة يا حبيبي، معلش نسيتك والله.
- .....
- أنا على البحر.
- .....
- هتيجى فين بس! لأ مانتعبش نفسك، نتقابل بكره إن شاء الله.

ينهي المكالمة ليعود مجددًا لدوامته التي تلقي به في آبار القلق المستمر إلى أن يلوح له الصباح.

على البعد تتراءى له شرفة غرفة منى مغلقة الإضاءة؛ إذًا فقد ناموا بسلام، ولم لا يناموا وقد شارف النصف الأول من الليل على الانتهاء.

في هذه الأثناء، شعر بيد تقبض على كتفه وبصوت كله حيوية:

- قاعد على البحر دلوقتي تبقى متخانق مع منى أو بتحب؟
- هشام؟ إيه اللي جابك دلوقتي، وعرفت مكاني إزاي؟
- اللي جابني يا صاحبي أنت، قاعد على البحر دلوقتي ونسيت ميعادنا يبقى فيك حاجة مش طبيعية، مش فوق ليه؟!

قص عليه الأمر منذ ظهور دنيا على الشاطئ وحتى بياتها مع منى ومريم.

- حلوة؟!
- مين؟!
- عروسة الشط.
- قوم امشي يا هشام أنت فايق.
- وأنت ماتفوقش ليه، تفتكر إنها صدفة تقابلها، وكمان تبات في شقتك وقلقك دا؟! قوم روَّح معايا نبات سوا وبكره نتعدل.
- لا روح أنت وأنا هفضل هنا للصبح.
- معقول أسيب صاحبي لوحده في أول ليلة حب، أخيرًا هنبقى في الهوا سوا.

شغلت كلمات هشام حيز كبير من عقل ضياء، قطع انشغاله كلمات هشام التي لم تتوقف مطلقًا حتى أثناء شروده.

- ياه يا صاحبي، مش كنت دايمًا نفسك تلاقي حب حياتك بالصدفة وتعيش قصة حب عنيفة، أدي حب حياتك جه لحد عندك.
- أنت هتسكت ولا أسيبك وأمشي؟!

تمشي تروح فين، هتيجي عندي وهتسمعني برده.

- هشام غيَّر الموضوع وإلا هتضطرني أغيرك أنت شخصيًا.
- نغيره، علشان أنا ماينفعش أتغير هههههههه، هننزل القاهرة امتى؟ ياعم أنا عريس وعايز أخلص حاجتي علشان أفضى للتفكير في ليلة العمر (يتنهد حالمًا):
- يا بني قدامك شهر بحاله.
- وهو شهر كتير! دا أنت يدوب تعمل تك بصباعك تلاقيه خلص.

استطاع هشام أن يخرج الضحكات من جوف ضياء، انقضى الليل في الحديث بينهم، فهشام هو الصديق الأوحد لضياء ومجيئه خفف عنه القلق كثيرًا رغم اختلاس بعض النظرات من ضياء لشرفة منى إلا أنه أنس لوجود صديقه؛ فهشام دائمًا بجواره حتى دون أن يطلب منه ضياء ذلك.

الصداقة الحقيقية سياج يلف أرواحنا بالسعادة الأبدية.

توجها إلى المسجد لأداء فريضة الفجر بعدما أعلن المؤذن عن وجوب الصلاة ظلا بالمسجد بعد إتمام الصلاة.

كشف الصباح اللثام عن الكون ليشع بنوره الهادئ أرجاء المعمورة، ترجلا سويًا إلى أن وصلا إلى وجهتهما، فتح ضياء المحل ودخلا، أخبره هشام أنه جائع، ذهب ليشتري بعض الطعام ليهدئ الثورة المقامة في أحشاءه، لم يتغيب كثيرًا حتى أشرف على ضياء ممسك بيد بعض السندويتشات، وباليد الأخرى كوبان بلاستيكيان داخلهما عصير القصب مد يده لضياء الذي ملأت وجهه المشرق ابتسامة عريضة من منظر صديقه زادت وجهه إشراقًا.

- خد اغسل الكلى والمعدة وادعي لي.

الفصل الثالث

بعض الأمان يجعلنا نقاوم رغبتنا في الرحيل عن أنفسنا، بل ونتمسك ببقايا الأمل المدفون بأحلامنا الباهتة.

صوت العصافير دائمًا يعلن عن قدوم الصباح، هذه المرة كان تغريدهم يبعث في نفس دنيا شيئًا جميلًا لا تستطيع فهمه، فهذا يومها الأول بالإسكندرية وليلتها الأولى قد مرَّا بسلام.

أزاحت الغطاء عنها ولم تجد مريم بجوارها، يبدو أنها نامت بعمق حيث أنها لم تشعر باستيقاظ مريم، وجدتها بين أحضان منى التي تغوص في نوم عميق، عيون الطفلة هادئة مطمئنة رغم استيقاظها، تبادلا الابتسام البريء.

أخرجت من حقيبتها بنطلون جينز زهري وبلوزة بيضاء وتوجهت بهما إلى المرحاض، بعد غسيل وجهها وتبديل ملابسها، وجدت منى تقوم بإعداد الفطور

- يالا يا دنيا الفطار.
- أنت لحقتي تحضري دا كله امتى.
- أنا صاحيه من بدري وجهزت كل حاجة بعد ما صليت الصبح، أول ما حسيت بكِ صحيتي جهزته على السفرة، يالا مش هنضيع وقت في الكلام عايزه أروح أودي الفطار لضياء.

جلسا على الطاولة، تناولت دنيا القليل من الطعام، بعد الانتهاء من تنظيف المائدة، أخبرتها منى بأنها ستذهب لضياء، وأنها لن تتغيب كثيرًا، حيث إن المحل قريب جدا من المنزل، وإن ضياء أصرَّ على أن يكون بالقرب منهم حتى لا يتركهم بعيدًا عن ناظريه.

أخبرتها دنيا أنها تود الذهاب معها، أمسكت دنيا أكياس الطعام، تأبطت منى مريم، خرجوا من باب الشقة الذي أدى إلى فناء يصل شقته بالشقة المقابلة، لم تتبينها من ظلام ومشقة ليلة أمس.

هبطتا الدرجات التي أدت بدورها إلى الباب الرئيس للمنزل، أخبرتها منى أن المحل بأخر الشارع، وبأنهم لن يسيرا كثيرًا، اجتازا الطريق بمرونة كبيرة، حيث كل شيء كان يتزين للقائهم كأنما تصالحت معهم الشوارع لتمهد لهم الطريق.

على بعد خطوات قليلة يجلس ضياء خلف مستوى رخامي لا يظهر منه غير كتفيه ورأسه، أمامه دفتر يكتب به، بجوار الدفتر كوب العصير مقابل المستوى الرخامي يجلس هشام غائصًا في كرسيه يشرب العصير، واضعًا قدميه فوق الكرسي يظللهم الصمت، وضياء مندمج في كتابة شيء ما حتى إنه لم ينتبه لوجود أحد، دخلت منى وقفت دنيا لتتعرف على المكان، واجهة زجاجية تكشف كل ما بالداخل، لافتة معلقة أعلى الواجهة، مدون عليها: (دنيا الزهور). خلف الواجهة ترآى لها مزيج مختلف من الزهور بألوانها الزاهية وبعض من الشتلات، انتبهت منى أن دنيا ما زالت بالخارج، فدعتها للدخول بصوت مرتفع مما لفت انتباههم. ترك ضياء ما بيده وهم واقفًا مرحبًا بهم مبتسمًا كعادته ويبدو على جفونه أنه لم يذق للنوم طعمًا، أخبرته منى أنها أحضرت له الإفطار، فانتفض هشام من استرخائه وترك العصير فوق المستوى الرخامي لمجرد سماعه اسم الطعام.

- أكل، أنا سمعت حد بيقول أكل، لا يا أم مريم ماتقوليش، أنا لسه واكل لكن ممكن أجي لكم على الغداء.
- تنور الدنيا كلها يا هشام، خطيبتك عاملة إيه سلم لي عليها كتير.

- طب أنا هروح أسلم لك عليها دلوقتي وماتنسيش تشيلي لي حقي، عايز حاجة يا أبو الضو؟

ينظر تجاه دنيا ثم يعيد النظر لضياء وينظر مرة أخرى لدنيا ويلتفت فجأة لضياء هامسًا له:

- عروسة الشط؟!

ترتسم علامات الخجل على وجه ضياء ويحاول إخفاء توتره بالتظاهر بكتابة شيء ما.

- روح يا هشام روّح.

يغمز له ويهمس في أذنيه:

- هروح يا صاحبي هنيالك بالشط وعرايسه... اااااخ يا قلبي اااااخ... هروح أكلم غفر البحر.

يسحب هشام كوب العصير من فوق المستوى ويتناول محتواه أثناء خروجه مع ضحكات الجميع، أما دنيا فكانت مليئة بأشياء أخرى ورأسها مزدحم بتفاصيل كثيرة، فقد ترددت كثيرًا قبل أن تتفوه بما يشغلها.

طلبت من ضياء أنه إن وجد عملًا مناسبًا لها أن يخبرها به، وأنها تريد استئجار مكان للإقامة به، تعجبت منها منى.

- يا حبيبتي البيت يساع من الحبايب ألف، وأنت زي أختي وعمري ما هزهق منك أبدًا.
- خلاص يا أم مريم هي معاها حق، صاحب البيت عايز يأجر الشقة اللي قصادنا والشقة اللي فوقينا وأنا شايف اللي قدامنا أنسب وهنكون مونسين بعض.

- الحاجة أم أحمد مرات عم إبراهيم صاحب البيت قالت لي إن الشقة اللي قصادنا اتأجرت وإن السكان هيجيبوا حاجتهم بكره أو بعده بالكتير.

بترت كلمات منى الابتسامة التي كانت تزين وجه دنيا.

- أنا هتصرف يا منى وبإذن الله الأستاذة....
- دنيا اسمي دنيا
- خلاص اتحلت بما إن اسمك دنيا والمحل (دنيا الزهور) فأكيد مكان دنيا هيبقى دنيا الزهور.

فاجئها حديث ضياء؛ حيث إنه يريد أن تكون جارته في السكن والعمل، هل يعني هذا أنه تولى رعايتها؟

ولم لا، وهي لم تؤذِ أحدًا بل هربت من الإيذاء، من الثقة غير الموجودة، قطعت كلمات منى حديثها مع نفسها.

- ابسطي يا ستي أدي الشغل اتحل، وعارفة إن ضياء هيخليكي تسكني في الشقة اللي قبالنا، عم إبراهيم يحبه.. بصراحة كل الناس بتحبه.
- متشكرة لك جدًا يا أستاذ ضياء مش عارفة من غيرك كنت هتصرف إزاى هنا.
- متشكرة على إيه بس أنت زي منى، ها.. تحبي تستلمي الشغل امتى؟
- دلوقتي.
- يا سلام! جميل والله؟ حضرتك هتقعد هنا في المحل وحضرتها هتستلم الشغل، وأنا هروح لوحدي، ومريم نايمة على دراعي ومافيش حد هيونسني في الطريق.
- هاتي مريم عنك، أنا هاجى أوصلك وأرجع لدنيا تاني.
- تقصد دنيا ولا دنيا الزهور؟

صوت ضحكات منى أخرجه من نجله الذي ألقته بكلماتها، أخذ عنها مريم وخرجا سويا، وجدت دنيا نفسها بمفردها؛ فقامت بترتيب المكان رغم أنه منمق ومنظم إلا أنها أرادت وضع لمستها الخاصة.

أمسكت أوراق ضياء لتضعها بالدرج، جذبتها الكلمات المكتوبة بالأوراق، انفرجت أساريرها بابتسامة، وتراجعت عن وضع الأوراق في الدرج وتركته في نفس المكان الذي وضعه به ضياء، وبينما هي تجول بأفكارها واضعة يدها على رأسها وممسكة بالأخرى قلم ضياء تُطالع أوراقه، إذ أتى ضياء يتمايل في خفة كأنه النعيم متجسد في صورة بشر، وجهه يشع ضياءً، ابتسامته تُعلن عن ميلاد أمنيات أخرى بل واقع آخر، وقد استبدل ملابسه وجلس أمامها يفتح الأكياس التي أحضرتها منى، أخرج منها العلبة المخصصة لحفظ الطعام بابتسامة عريضة.

- الفطار اللي جابه هشام أَكَله لوحده.. تعالي افطري معايا أنا ماحبش آكل لوحدي.
- أنا سبقتك من زمان فطرت أنا ومنى ومريم.

بدأ يقضم السندويتشات دون كلمة، تشاغلت عن مشاهدته باللعب في هاتفها وتصفُّح الإنترنت، ولم يمنعها هذا الانشغال عن اختلاس بعض النظرات العابرة له وهو يأكل، انتهى من تناول الإفطار، رغم أن منى قد أعدت له الكثير إلا أنه اكتفى بالقليل من الطعام، استأذنها في الخروج لبضع دقائق واعتذر عن تركها بمفردها، ابتسمت بالإيجاب؛ فهي مدينة له بكل شيء؛ المأوى، والعمل، وحتى الأمان الذي يسرى بأوصالها الآن.

لم يتجاوز تغيبه بضع دقائق، ودخل يحمل كوبين من عصير الليمون، وضع أمامها كوبًا وبدأ يرتشف من الآخر.

- أنا متعود دايمًا أشرب ليمون بعد الأكل، ماعرفش دا صح ولا غلط بس أنا اتعوت على كدا، أكيد مش هشرب الاتنين يعني، واحد ليَّ والتاني لكِ.

تناولا العصير دون حديث، مرَّ الوقت سريعًا برغم الصمت المحيط لهم، التكبيرات تُعلن وجوب صلاة الظهر استأذنها وخرج لأداء الفريضة في المسجد المجاور، وبعد عودته أخبرها بأنه يجب عليه أن يغلق المحل، استفسرت منه عن مواعيد العمل.

- مافيش مواعيد معينة ما دام ماحدش جه خد وردهة يبقى مافيش رزق النهاردا، والحمد لله على كدا وبعدين النهاردا أول يوم ليكي مش عايزين نتعبك يلا نروح لمنى نشوف هتطبخ إيه.

***

أمام نبضات القلب تدور عقارب الساعة ضد الاتجاه معلنة التمرد على قراراتنا.

في القاهرة

اعتادت نهى على المواجهة، مواجهة الأحداث وحتى مواجهة مشاعرها، فعندما بدأ يسري في قلبها نبضات رقيقة تجاه خالد؛ قررت مواجهته بما يدور في قلبها والاعتراف له بحبها، فإما أن تحارب معه الحياة بحبها أو التخلص نهائيًا من مشاعرها ومقاومتها.

تذكرت لحظة اعترافها لخالد ولأول مرة في حياتها بما ينبض في صدرها، وعندما وجدت أنه يبادلها نفس المشاعر وكان يخشى الاعتراف حتى لا يفسد صداقتها لأخته أن هي رفضت مشاعره.

لم تتمالكها السعادة؛ حتى أغشي عليها من فرحتها، تذكرت مواجهتها لخالد لأنها لن تستيطع إخفاء مشاعرها عن صديقة عمرها.

تذكرت مواجهتها لنفسها عند الاعتراف لأبيها بكل ما يمتلك مشاعرها من خوف وحب وأمل ويأس؛ فلم حزنها إذًا وهي دائمًا في الموقف الأقوى؟!

خرجت من غرفتها بكل ما أوتيت من مقاومة لرغبتها في الانعزال، وجدت أباها يحتسي قهوته في الشرفة المطلة على حديقة منزلهم توجهت إليه مباشرة، قبَّلت جبينه وجلست أمامه على أحد الكراسي المصنوعة من خشب الأبانوس، وضعت هاتفها على المنضدة ذات المسطح الزجاجي، لحظات من التململ الواضح عليها وأمسكت هاتفها تطالعه.

- خالد كلمك.
- لا أبدًا.
- هيكلمك.
- براحته بقى، مش المهم يكلمني، المهم يكلم دنيا أو يخليني أنا أكلمها، ماتستعجليش الأحداث، إحنا مانعرفش بكره مخبي إيه، الصبر يا بنتي، الصبر أهم شيء في أيّ علاقة علشان نقدر نستمر ونواصل، مش لازم ندقق في كل التفاصيل

في هذه اللحظة يقطع حديثه جرس الباب في وقت غير متوقع لزيارة أحد لهم، فالساعة لم تتجاوز الواحدة ظهراً. تتوجه نهى لترى من بالخارج تفتح الباب فاغرة فيها لتبدأ بالحديث، فإذا بصوته يعيد الكلمات لجوفها مرة أخرى.

- بابا موجود؟

لم يعطها الفرصة للإجابة، يتوجه للداخل مباشرة، تقف بجوار الباب تستدير بجسدها مع تحركه للداخل.

- مين يا نهى؟!
- دا دا دا دا.
- أنا خالد يا عمي، وجاي لك لأنى محتاج دعمك.
- تعالى يا ابني، القهوة يا نهى.

توجها إلى غرفة الصالون، وانطلقت نهى لإعداد القهوة، عند وصولها وضعتها أمامهم على المنضدة، ترجاها خالد للجلوس معهم، رغم تجهمها ورفضها التواجد بالمكان إلا أنها خضعت لرغبتهم.

- اقعدي يا نهى لو سمحتِ.
- خالد مش عايز يتكلم غير في وجودك.
- حاضر يا بابا هقعد.
- أنا مش ممكن أكسرك أو أخسرك مهما حصل، أنا يا عمي بحب نهى وعايز أكمل حياتي معاها، ورغم إن ظروفي مش واضحة بس أنا جيت أوضح لك كل حاجة.

شرح له ظروفه كاملة، وإن أمامه فترة كي يعد نفسه للزواج؛ لأنه لن يسمح لنفسه بأن يكون عبء على أبيه.

نحن دائمًا بحاجة لموقف رجل، لا لمسمى رجل، وليس في حياتنا مكان لمزيد من أشباه الرجال.

انبسطت أسارير أبيها، وقام واحتضنه فمال خالد على يديه ليقبلهما وأخرج هاتفه وضغط على زر الاتصال ووضعه على أذنيه منتظر إجابه الطرف الآخر:

- الو... دنيا... أنا عند نهى في البيت.

شرح لأخته كل شيء، لم تمالك نهى نبضات قلبها من التعبير عن فرحتها، فرحتها بتمسك خالد بها وإعلان التمرد على ظروفه.

- مش ممكن أخليكِ تعيشي في الضلمة لحظة واحدة.

نتناسى أوجاعنا كلما وجدنا الطمأنينة تحيط بنا بقلوب يملؤها الحب.

وقف ضياء ودنيا أمام باب الشقة، رن الجرس وأخرج مفتاح وفتح الباب، خرجت منى لتراهما أمام الباب، ويداها مليئة بمسحوق الغسيل، تربط رأسها بشال صغير.

- أنا ورايا كام مشوار كدا هخلصهم، مش هتأخر.
- بالسلامة يا حبيبي، تيجى بألف سلامة، اقعدى يا دنيا على ما أخلص شوية الغسيل اللي في ايدي وأجي لك.

ضجيج غسالتها يستغيث بها كي تُخرج ما في جوفه، استكملت حديثها أثناء توجهه للحمام:

- جايالك يا ختي جيالك ماتزعقيش كدا.
- استني أنا هاجي أسكتها معاكِ.
- تيجي فين بس اقعدي ارتاحي أنتِ تعبانة طول النهار.

- لا والله ماينفع علشان نخلص بسرعة وتلحقي تعملي وصفتك وإلا ممكن تأجليها ليوم تاني، فكرتيني بفاطمة أختي علشان تغسل طقم واحد بتقعد مشغلة الغسالة عليه طول النهار.

اهتزت أركان المنزل مرحًا وأنجزا العمل سريعًا، فبرغم أننا نعتاد على أن ننجز مهامنا بمفردنا إلا أن التعاون ينجزها أسرع، توجها للمطبخ لإعداد الطعام، تجاذبا أطراف الحديث وسألتها عن يومها الأول في العمل وهل أزعجها ضياء؟

- شغل إيه بس اللي متعب دا، أنا قاعدة طول النهار، أما بالنسبة للأستاذ ضياء فأنا عمري في حياتي ما قابلت حد زيه.

صوت جرس الباب يقطع أطراف حديثهم.

- خليكِ أنت يا أم مريم وأنا هروح أشوف مين.

خرجت دنيا متوجة إلى باب الشقة، فوجئت بضياء أمامها ولأول مرة تسمع لضحكته صوتًا، لكنه لم يتمالك نفسه عندما نظر إليها مشمرة الذراعين معصبة الرأس مثل منى أثناء هذه اللحظة خرجت منى على صوت ضحكته مما أثار الضحك أكثر لديه.

- أنتم إيه اللي عاملينه في نفسكم دا قوام شغلتيها يا أم مريم.
- هي اللي حلفت عليَّ والله.
- أنا مابقيتش غريبة يا أستاذ ضياء.
- طبعًا أنت أختي وحبيبتي، روح يا ضيا غيَّر هدومك وثواني والأكل هيجهز.
- يا ريت أحسن أنا ميت من الجوع.

أعدتا المائدة، تناولوا الطعام في صمت، وبعد الانتهاء ذهب ضياء إلى المطبخ لإعداد عصير الليمون المفضل له، أما منى فقد تعودت أن تحتسى كوبًا من الشاي بالنعناع، ورفضت دنيا أيّ مشروب لأنها لم تعتد أن تشرب شيء بعد الطعام.

جلسوا جميعًا أمام التلفاز، ضياء يقلب في القنوات دون اهتمام بجهاز التحكم رمادي اللون، مرَّ على قناة الطبخ المفضلة لمنى مرورًا عابرًا، توسلت له أن يترك لها البرنامج كي لا تحتار في إعداد وجبة الغداء غدًا.

- ارحمي معدتنا يا منى أرجوكِ من البرامج اللي بتشوفيها.
- والنبي أنتم حد مغذيكم في البيت دا غيري، انكر أنا عايزاك تنكر، انكر بس، دا أنت من غيري تلوص.
- هنعمل إيه أدينا بنديكِ فرصتك أهو تجربي فينا.
- بقى كدا يا ضيا؟ يعني أكلي مش عاجبك صح ؟ فين مريم اللي ناصفاني دايما تقول لي: أنا بحب طبيخك يا ماما، حبيبتي يا بنتي.
- صحيح بأمارة ما سابتك ونامت هربت بمعدتها منك.
- ماشي يا ضيا، بس خليك فاكر إن أكلى مش عاجبك شوف مين هيأكلك بقى والمطبخ أنا مش هدخله تاني، اديني سايبة لك التليفزيون كله تشبع به وسايبة لك الصالة كلها وماشية، أنا داخله لبنتي حبيبتي اللي ناصفاني.

تهم منى بالوقوف متوجهة إلى غرفتها مما يبدو على ضياء أنه لم يزعجها.

- حرام زعلتها، الأكل كان حلو.
- أنا عارف إنه كان حلو، أنا مازعلتهاش، هي متعودة مني على كدا وعارفة إني مابقولش كدا غير لما الأكل بيكون عاجبني.

- يعنى أنتم كنتم بتهزروا؟ دا أنا صدقت.
- المهم كنت عايز أقول لك إن صاحب البيت وافق يأجر لك الشقة اللي قدامنا وهنكتب العقد بكرة بإذن الله.

تهللت دنيا لذلك الخبر في هذه الأثناء، تأتي منى وتهنئ دنيا وتقوم باحتضانها وتقبيلها، وتوجه حديثها لضياء متباهية:

- وبرده هطبخ كل يوم.

عندما تتخذلنا قلوبنا نحاول البحث عن ذاتنا أكثر.

تجلس منى على الأريكة بجوارها دنيا يتناولان مشروبًا دافئًا لمحاربة البرودة التي تتسلل إليهم من حين لآخر، يأنسان بوجودهما معًا، يتجاذبان أطراف الحديث بود عميق وكأنما قد ولدتا في منزل واحد يجمع بينهما الحب الأنيق الخالي من الاستغلال، وبرغم أنه لم يمرّ على معرفتهما غير ما يقرب من شهر فقط، أما مريم فكانت تلهو بسيارة صغيرة وتحاول أن تدخل عروستها بالسيارة، فقد قررت منى المبيت مع دنيا بعد إلحاح من دنيا حتى لا تبيت بمفردها، حيث ضياء بالقاهرة يستعد مع صديق عمره لإتمام متطلبات زواجه.

صوت هاتف دنيا يعلن عن قدوم اتصال لها، استأذنت من منى لتجيب على الاتصال، انصرفت إلى الغرفة وجذبت الهاتف من فوق سريرها، وأسرعت بالرد:

- ألو...

على الطرف الآخر فاطمة لم تعطِها فرصة للحديث، وفي محاورة فردية من جهتها، والاستماع من جهة دنيا والابتسامة تعطى وجهها أكثر إشراقة وجمال، تتحدث فاطمة بسرعة مفرطة:

- دنيا يا قلبي.. وحشتيني.. كدا خيانة بقى، تروحي لوحدك لعمتو وتسيبيني؟ طب كنت خدتيني معاكِ.. هي عمتو عامله إيه؟ سلمي لي عليها أوي.
- الله يسلـ...
- بقول لك إيه، المنصورة طبعًا مليانة محلات إكسسورات، ماتنسيش أختك الغلبانة، لازم تذكار من كل أنحاء الجمهورية.
- حاضر...
- أختي حبيبتي، ماتحرمش يا رياسة، شوفتِ كنت هنسى، فيه بوت أبيض أنت سيباه تحت السرير مسكين ماحدش معبره، أنا عايزة ينوبني فيه ثواب، يرضيكِ يفضل عاطل ومن غير شغلانة والشتا قربت تخلص.
- خدي الثواب يا خت...
- خلاص هاخده وأنت هتلاقي المنصورة مليانة أجمل منه، وماتنسيش تجيبي لي شنطة بيضاء، وطرحة بيضاء، وبالطو أبيض، وسكارف موف.

تضحك دنيا بصوت مرتفع مما يجذب انتباه منى:

- واشمعنى الإسكارف مش أبيض.
- يعني هبقى سلطانية زبادي ماشية لازم نكسر بلونٍ آخر.
- اكسري زي ما أنت عايزة، بابا عامل إيه وماما؟ وخالد وحشتوني كلكم.
- همّ كويسين وبيسلموا عليك وعلى عمتو.. أنت هتيجى امتى؟
- الله يسلمهم، سلمي لي عليهم أوي.
- بقول لك إيه؟ ماقابلتيش ابن الجيران عندك ولا إيه؟ أه من ولاد الجيران ولاد اللذين دول.
- ابن الجيران إيه بس.. ذاكري يا ماما وسيبك من الأفكار دي.

- مذاكرة إيه أباشا.. الأفكار دي هي اللي باقية، المذاكرة أخرى هقعد في البيت أنا والأفكار دي، يبقى إيه بقى؟ يبقى نخلي الأفكار دي ملازمانا، وأقطع دراعي أن ما كنت قابلتِ ابن الجيران وإلا كان زمانك جيتِ، بس الحب بقى، قولي لي بس شكله إيه؟
- روحي يا بنتي مش فاضية لك.. يالا سلام بعدين هكلمك.

تنهي دنيا المكالمة وتضع الهاتف مكانه وتخرج لمنى مبتسمة، تلاحظ منى السعادة المرسومة على وجهها وتغمز لها.

- مكالمة من مصر، احكي لي مين؟ ها؟ ولا دا سر؟
- سر إيه؟ أنتم إيه حكايتكم النهاردا؟ دي فاطمة أختي.
- امال إيه ابن الجيران اللي سامعاه دا؟

تضحك دنيا وتستطرد:

- هي اللي بتسألني قابلتِ ابن الجيران ولا لسه؟
- قولي لها قابلته من زمان.

تشير إلى شقتها قاصدة ضياء تنظر لها دنيا مذهولة منزعجة من حديث منى:

- معقولة أنت اللي بتقولي كدا؟ يا بنتي فوقي، ابن الجيران دا يبقى جوزك أبو بنتك، دا لو جوزي لا يمكن أقبل إن واحدة تانية تشاركني فيه.

تدخل منى في حالة من الضحك الهيستيري المتصل، لا تستطيع إكمال حديثها حيث تنتابها نوبة من السعال وتدمع عيناها ويزداد وجهها احمرارًا، أسرعت دنيا لإحضار كوب ماء من الداخل، تأتِي بالماء ويعتريها مزيج من الدهشة والغضب، فماذا في كلامها يثير كل

هذا داخل منى ما جعلها على وشك فقد روحها من كثرة الضحك؟ انفجرت دنيا في وجه منى، جعلت ضحكاتها تتلاشى داخلها.

- إيه اللي أنا قولته يخليكِ تضحكي بالشكل دا؟
- علشان...

كادت أن تدخل نفس الحالة مرة أخرى لولا نظرات منى المحذرة لها؛ جعلتها تتجمد.

- لأن ضيا أخويا.. بقى لك حوالي شهر معاه في الشغل ومعايا وماتعرفيش إنه مش جوزي.. جوزي اسمه محمد، ومسافر الكويت من ٩ شهور.
- أخوكِ؟ وأنا فاكرة إنه!

***

بعد مرور أسبوع

يصرخ ضياء على منى للإسراع والانتهاء من ارتداء ملابسها؛ حتى لا يتأخروا، وأخبرها أنه استأذن هشام ساعة فقط لإحضارهم، وإنه لن يتغيب عنه كثيرًا، بينما منى تطمئنه أنها لن تأخذ سوى دقائق بسيطة، فقد انتهت من تبديل ملابس مريم.

دق جرس الباب، يفتح ضياء ليرى أمامه دنيا بكامل أناقتها، ملكة متوجة على عرش الأنوثة، تبتسم بتودد:

- مساء الخير، إيه دا يا منى؟ معقوله لسه مالبستيش، سيبي مريم هكمل أنا لبسها، وروحي أنت البسي بسرعة.
- حتى أنت يا دنيا.. ضيا هو كمان عمال يسرع في.

- يا منى بقول لك سيبت هشام يروح لوحده يجيب سلوى من الكوافير، وقولت له هاجي أجيبكم وأسبقه على القاعة، كنت سيبتكم بقى تيجو لوحدكم.
- خلاص هخلص اهو.

تدخل غرفتها مرددة بضع كلمات بصوت خافت لم يستطع أحد تفسيرها، ولكنها متذمرة في اللهجة، تقترب دنيا من ضياء بتردد يكسوها الخجل:

- أنا محرجة إني هروح من غير عزومة، وما أعرفش العروسة، حتى هشام ماشوفتوش غير مرة واحدة وكانت دقايق بسيطة.
- هم عارفينك كويس ومأكدين علي تيجي، ولنفرض إن ماحدش قال لي، كان لا يمكن أسيبك لوحدك، وماكنتش هروح أنا كمان فرح صاحبي الوحيد.

تنظر إلى الأرض في محاولة منها للهروب من أعين ضياء، وتبتسم قليلًا ليقطع ابتسامتها صوت منى من الداخل منزعجة، للوهلة الأولى يبدو أنها تتذمر منفردة من ملابسها، حتى يتسرب لسمعهم اسم أحدهم، فيجذب اهتمامهم.

- فيه إيه يا حنان.. مالك؟
- .....
- اهدي بس وفهميني فيه إيه؟

تخرج بعد لحظات مرتدية الفستان فقط، وبيدها الهاتف واليد الأخرى فردة حذاء، لتخبر ضياء أنها لن تستطيع الذهاب معهم، وستذهب لحنان، يثور ضياء ولأول مرة بحدة غير معهوده عليه:

- إزاي يعني هتخرجي لوحدك بالليل؟

تحاول دنيا تهدأته، أما منى فتأثرة لصديقتها وغير عابئة بثورة أخيها؛ لعلمها بحبه لها وأنه يخشى عليها من أيّ شيء، وبمنتهى الهدوء تكمل حديثها:

- أنا هروح وأنت ابقى عدي خدني، أو أقول لك: أول ما توصل رن لي وأنا هاجي مانتعبش نفسك، أنت عارف البيت قريب، وحنان مش غريبة، عديها يا ضيا علشان خاطري، شكل في مصيبة عندها.

يتركها ويتحرك تجاه الباب بسرعة وعصبية ويصرخ في دنيا أثناء فتحه الباب، في دهشة من الجميع:

- يالا يا دنيا.

الفصل الرابع

في غرفة حنان

تضع حنان رأسها بين أحضان منى وهي في انهيار تام، تحاول منى أن تعرف الأمر رغم شكوكها دون جدوى، تركتها منى في انهيارها لإعداد كوب من الليمون حتى تهدأ، أعدته بسرعة فائقة وأجبرت حنان على الارتشاف منه، وبنظرة تشتعل حنان وصبر وشعور بما يستعر داخل حنان:

- اهدي وكل حاجة لها حل. مش هسألك مالك، عارفة إنك كلمتيني علشان تحكي، وأنا مستنياكِ تهدي وتفضفضي، وتشيلي الحمل اللي في قلبك.

نزلت كلمات منى لتُسكِّن الألم الذي ملأ روحها، غاصت ملامحها في قناع من الدموع، لكن وبرغم تلك الدموع لم يصب جمالها التلف، ورغم انتفاخ عينيها الزرقاوين من كثرة البكاء إلا أنهما ما زالتا تجذب إليهما الناظر، حاولت أن تهدأ وتسيطر على انفعالها:

- ضحك علي يا منى، خدعني.
- يا حنان ياما حذرتك، وقولت لك ما دام كل السنين ماخدش خطوة وكلم عمي وطلبك منه، سيبك منه.
- بعد ٣ سنين معشمني فيهم بالجواز،٣ سنين مخدرني بكلامه، اكتشفت إنه متجوز، بعد ما ضحك علي وخد مني كل حاجة.

بلهجه متعنفه ملؤها الخوف بدأت تهزها، دون أيّ رد فعل من حنان، بل زاد تخشب جسدها:

- يعني إيه خد كل حاجة! اتكلمي يا حنان؟

- مش اللي في بالك خالص.
- وضحي يا حنان لو سمحتِ.
- كان بيفضل بالأسابيع مايكلمنيش، وأحاول أكلمه مايردش علي، ولما جيت عاتبته، قال لي إن مامته تعبانة جدًا ومحتاجة تعمل عمليه خطيرة، وطلب مني أستحمله لحد ما يطمن على مامته، غاب عني أسبوعين ورجع كلمني، حسيت إن فيه حاجة مضايقاه، وبعد إلحاح منى قال لي إن مامته حالتها بقت أسوأ وضروري تدخل العمليات، والفلوس اللي معاه مش هتجيب حتى تمن البنج، وأنا بغبائى فضلت ألح عليه ياخد مني فلوس وكان رافض، لحد ما قال لي هعتبرهم دين في رقبتي، بعت دهبي واللاب توب بتاعي ومديت ايدي في دولاب بابا خدت اللي فيه.
- اديتي له كام؟
- ٢٥ ألف جنيه.
- وخدتي كام من دولاب عمي؟!
- ٦٥٠٠ جنيه، اتصلت به أكتر من مرة لاقيت تليفونه مقفول، أنا فكرت إن علشان مشغول مع مامته ممكن الموبايل يقطع شحن.
- أكيد طبعا غير رقمه وهرب.
- النهاردا لاقيت واحدة مشيرة صورته ورقمه على معظم جروبات الفيس بوك وبقصة مختلفة، إنه راجل متجوز وابنه هو اللي محتاج العملية وأخد منها ٤٣ ألف جنيه.
- وعرفتِ إزاى إنه متجوز؟
- فيه مرة شوفته قريب من المنشية قاعد في كافيه هناك، ولما سألته قال لي إنه قاعد مستني واحد صاحبه ساكن هناك، ومرة تانية شوفته ومارضتش أسأله وكان هو مش شايفني، مشيت وراه من بعيد لحد ما دخل بيت وكان بيسلم على الناس في الشارع وباين إنه عارفهم وعارفينه. استنيته ينزل من عند صاحبه، بعد نص ساعة

نزل وأنا كنت مستخبية، لقيت واحدة باصه من البلكونة بتنده عليه، وبتسأله هيتأخر زي كل يوم ولا لا.

- وأنت طبعًا ساذجة وفاكراها أخته!

لا تستطيع حنان مقاومة الانهيار الذي سيطر عليها فتذهب في نوبة بكاء.

- أيوه، بعد ما قريت المنشور روحت البيت اللي نزل منه في المنشية، فتحت لي الباب نفس البنت اللي كانت في البلكونة، عملت نفسي موظفة من مكتب سفريات، وطلبت منها يجي يمضي بنفسه على الورق، وعرفت إنه مختفي من أسبوع وماحدش يعرف رقمه الجديد، وإنها مراته وعنده بنتين؛ واحدة خمس سنين، والتانية سنتين ومامته متوفيه من عشر سنين.
- وماعرفتيش تروحي بدري شوية عن كدا؟

منى هي زوجة محمد، أخو حنان الأكبر والأوحد، وبمثابة شقيقة لحنان وبينهم من الحب ما لا يستطيع أيّ شيء أن يلوثه، دائمًا هي بئر الأسرار الذي لا ينضب، وتستشيرها في كل الأمور وتستمع لمشورتها إلا في ذلك الموضوع.

فعندما يتحكم القلب في طباعنا، نلغي العقل والاستماع للآخرين، وتبقى قوى الحب هي القوة العظمى التي لا يقف أمامها أحد.

- للأسف، أرجوكِ يا منى بلاش بابا أو محمد حد منهم يعرف، دا ممكن يروحوا فيها.
- وأنا هقدر أتكلم في حاجة زي دي؟ أكيد مش هقول، بس هتتصرفي في فلوس عمي إزاي، دا لو عرف هتبقى كارثة.
- مش عارفة

- ممكن تبطلي عياط علشان خاطري، بكره بإذن الله هاجي وأجيب لك الفلوس تحطيها مكانها، أنا لسه قابضة إمبارح جمعية، وكدا يبقى نص المشكلة اتحلت، هتبرري إزاى اختفاء حاجتك، والكلب دا طبعا ماحدش هيعرف يجيبه، وماتزعليش مني يا حنان دي غلطتك، مش أيّ حد لازم نديله الثقة المبالغ فيها دي، وأديكي مش هتقدري تاخدي حقك لأنك خايفة.

***

قاعة الأفراح بالإسكندرية

على باب القاعة يقف ضياء يرتدي بدلة سوداء أنيقه، حذاء أسود لامع، قيص أبيض، يبيبون. تقف بجواره دنيا بفستانها الفضي الطويل، وحذاء ذو كعبٍ عالٍ جعلها مساوية لضياء في الطول، تحمل حقيبة صغيرة لامعة.

- تعالي نسلم على هشام وعروسته.
- لا روح أنت، أنا محرجة لأني ماعرفهمش.
- لا هشام وسلوى عارفينك أنا كلمتهم عنك، تعالي بس ماتقلقيش أنا جانبك.

يمسك يدها ويتحرك بها نحو الكوشة، يقف هشام ويحتضنه.

- عقبالك يابو الضو.
- حبيبي تسلم لي، ألف ألف مبروك.

تسلم دنيا على هشام على استحياء وتذهب للعروس لتبارك لها، تسلم عليها بخجل:

- ألف مبروك.

- عقبالك يا حبيبتي، أفرح بكم قريب.

يحمر وجهها خجلا ولا تدري ماذا تفعل، تلتزم الصمت، يقترب ضياء من صديقه ويسر في أذنه كلمات يضحكان بعدها، يستأذنه ضياء ليتركه لمعازيمه:

- يالا يا دنيا نقعد.

يفسح لها المجال لتتحرك أمامه، يتحرك خلفها، يمسك بيديه الكرسي ليجلسها كجنتل مان، ويتوجه للجلوس أمامها، أمامهم على المنصدة فازة بها وردة حمراء، تنظر لها دنيا مبتسمة شاردة وكأن بينهما سر، تتسع ابتسامتها، يتابع ضياء في صمت ولا يحاول مقاطعة حديثها مع وردتها، ينظر إليها نظرة عاشق يكتوي بنار العشق ولا يشعر به أحد.

تنظر إليه دنيا على حين غفلة، يرتبك وتتصارع ألوان الطيف كلها على وجهه، يبدو وكأنها كانت تريد أن تخبره بشيء ولكنها لم تفعل، أعادت النظر لوردتها.

يلفت انتباهها صوت وردة:

«اه لو قابلتك من زمان، كانت حياتي اتغيرت
ولا كان جرى كل اللي كان لكن دى قسمة اتقدرت»

يتبادلان نظرة عشق تعبِّر عن مدى عشقهم، ينظر مباشرة إلى عينيها:

- ترقصي؟
- مش بعرف مع ابتسامة خجل.
- يعني أنا اللي واخد أوسكار.. قومي قومي.

لا تستطيع منعه وتذهب مسحورة دون السيطرة على نفسها، يقفان في منتصف القاعة وحدهم، تضع يدها على كتفيه ويضع يده حول خصرها يتمايلان ببطء، ترآت له ترتدي فستان الزفاف وتبتسم له:

- بحبك.
- بحبك.

أفاق من شروده عند كوبليه:

«لو كنت شوفتك من زمان كانت عنيا اتعلمت
معنى الحنان معنى الأمان ولا من دموعها اتألمت»

- حلوة الأغنية دي أول مرة أسمعها.
- أنا بحبها أوي الأغنية دي.. بابا اللي كان بيسمعها.. حبيتها علشانه.. كان دايمًا يقول لي.. أنا بهديها لمامتك.
- .....
- ضيا أنت ساكت ليه .. مالك؟!
- أنا بخير
- متأكد؟!

تلمح بعينيه نظرة خوف، حب، قلق، حياة، يأس عيناه تحدثت بالكثير وكأنها أرادت أن لا تسمع ما به فأجابته بفتور:

- ماشي.

انتهت الرقصة وذهبا إلى منضدتهم، جلسا طويلا، تلاشت جميع الأصوات حولهم إلا أصوات قلوبهم، فكليهما يحمل داخله السعادة والخوف، قطع ضياء ذلك الصمت بلهجة خالية من الطاقة:

- مش هنروح ولا إيه؟
- فعلًا الوقت اتأخر جدًا.. وأنا عايزة أنام.

- طب يالا نروح نبارك لهشام ونستأذن منه.

ذهب تجاه هشام وعروسه:

- يا بني تروح إزاي دلوقتي، أنت المفروض تقعد معايا للآخر، تشجعني تشد من أزري.
- معلش يا هشام أنت عارف ماينفعش أرجع أنا ودنيا متأخرين أكتر من كدا، الناس تقول عليها إيه، لو مني كانت معانا كان يبقى سهل بس للأسف.
- ماشي يا صاحبي، أنا فاهم طبعًا عقبالكم بقى وتخلصوا من كلام الناس.

كسا الخجل وجه دنيا وتظاهرت بأنها لم تلاحظ شيئًا، وبدأت تتحدث للعروس مهنئة لها، نظر له ضيا نظرة مغزاها: ماذا تقول؟ أأكون قد أخطات بإخبارك، خرج من الحفل ووقف قليلًا أمام القاعة.

- ضيا إحنا واقفين ليه؟
- هنشوف تاكسي يوصلنا.
- طب ما نتمشى شوية.
- زي ما تحبي.

مَشيا كثيرًا وكثيرًا دون حديث، لم يشعُرا بالوقت أو التعب، نظرت دنيا في ساعة يدها:

- ضيا شوف تاكسي بسرعة، عندي شغل بدري ومديري صعب أوي.. هيخصم لي أسبوع لو اتاخرت.
- متأكدة؟

ضحكا كما لم يضحكا من قبل، أشار ضياء إلى تاكسي وركبا، وصلا المنزل، صعدا الدرج سويًا، أخيرًا وصل كلٌّ أمام منزله، وقف ضيا لحظة:

- ادخلي.. أنا مش هدخل قبل ما أطمن عليكِ وتقفلي الباب.

فتحت باب شقتها، دخلت بنصف جسدها، استدارت لتواجهه مباشرة:

- تصبح على خير.
- أنت الخير.

***

ومهما حاولنا الهروب، يلاحقنا العشق النقي الذي يأخذنا في رحلة حقيقية للحياة.

في الأجواء صوت العصافير ينعش الصباح ويتراقص مع أذرع الشمس الذهبية؛ ليعلن عن ميلادِ يومٍ سعيد.

تفتح دنيا عينيها مبتسمة.. تزيح من فوقها الغطاء، تهبط من فوق السرير، ترتدي السليبر خاصتها، لتبدأ ممارسة جدولها اليومي، تقف لبرهة أمام مرآتها سعيدة تشير إلى صورتها المنعكسة على المرآة بالتحية:

- صباح الفل يا دودو.
- صباحك سعيد، مالك كدا، بتحبي ولا إيه؟! هو ضيا فعلًا يحب.
- أحب مين؟ ضيا صديقي المقرب والوحيد وجاري و...
- و...؟ كملي واعترفي، الحب بيظهر مهما حاولنا نداري.
- يا شيخة اسكتي.. دايمًا كدا واقفة لي على الواحدة، إيه يعني مبسوطة شوية، السعادة مش بالحب وبس، ثم ماتنسيش إني خرجت إمبارح وغيرت روتين يومي، شوية دوبامين زادوا، مش قضية يعني.
- أنت شايفة كدا؟
- بقول لك إيه يا دودو؟ هتأخر على الشغل، باى بقى.

هكذا حالها في لحظات انكسارها أو سعادتها، تُحدث نفسَها كثيرًا أمام المرآة، تخرج مسرعة متجهة للحمام، لم تتناول وجبة الإفطار، تفعل كل شيء بسرعة، تخرج من باب شقتها، ترى أمامها منى لا تقف كعادتها لتبادل التحية وتكتفي بالتحية وهي تهبط الدرجات مسرعة، تتعجب منى مما تراه، تدخل شقتها دون التفوه بحرف.

يتراقص الطريق سعاة تحت قدميها، على الأنغام المترددة على مسامعها من أغنية أمس: «أه لو قابلتك من زمان».

يرتفع صوتها بترديد الكلمات متماشية مع اللحن، لم تعِر الطريق أو المارة أيّ انتباه:

«مكتوب لنا نرجع نقابل بعضنا، لما بقى آن الأواااان»

يقطع انسجامها بكاء طفلة صغيرة لم تتجاوز عامها الخامس:

- أنا عايزة وردة.

تبتسم دنيا تحدث نفسها:

- حتى أنت عرفتِ وردة؟ اوعي تكوني روحتِ الفرح أنت كمان؟
- وردة إيه يا حبيبتي، لما نروح هخلي بابا يجيب لك.

تشير الطفلة يميناً على المحل لتنتبه دنيا للتو أنها أمام محلها.

- وردة من هنا يا ماما.

توجهت دنيا للطفلة لتطمئنها أنها ستعطيها وردة، أثناء توجهها خرج ضياء يحمل بيده وردة بيضاء ويعطيها للطفلة، تبتسم وتقبِّل وردتها وتطبع قبلة على جبين ضياء.

- شكرًا يا عمو.

تحاول الأم إخراج النقود من حقيبتها فيمنعها ضياء.

- دي زي بنتي، وبعدين دي حاجة بسيطة يعني.

بنتي، كم لوقع هذه الكلمة من مفعول سحريٍّ في نفس أيّ شخص يسمعها، تبادل ضياء ودنيا نظرات، من ناحية دنيا تشعر بالأسف لتأخرها، ومن ناحيه ضياء مزيج من السعادة لرؤيتها، وكثير من الحب وبعض من نظرات المتأكد من أنها ستتأخر.

- أنا آسفة على التأخير.
- هههههههه.. أنت صدقتِ إني مديرك ولا إيه، كام مرة أقول لك إننا شركا، اتفضلي شوفي شغلك، استنيني ثواني وراجع.

يخرج ويخرف يميناً، تبدأ في رش الورود بالماء حتى لا يذبل، رصت المقصات وأشرطة النايلون في الأدراج، حقًا ضياء لم يترك لها أيّ شيء تقوم بفعله، فقد قام بترتيب كل شيء، بعد قليل دخل ضياء يحمل بيده أكياسًا من البلاستيك، أحدهما به بعض السندويتشات، والآخر به كوبان من كوكتيل الفواكه، أفرغ الأكياس على المنضدة:

- اتفضلي كلي، لأنى واثق إنك ماكلتيش إمبارح وصحيتٍ متأخرة وماعرفتيش تفطري.
- مش جعانة.
- ماخدتش رأيك، حد يقول للشاورما مش جعانة، يالا سمي الله.

ناولها ساندويتش ليزيلَ عنها الإحراج وبدءا بتناول الطعام دون حديث؛ الحقيقة أن عينيهما تتحدث أكثر من ألسنتهم، أو بالأخص عينا ضياء، لكنه يخشى أن يتسلل إلى عقل دنيا أنه يريد منها رد جميله معها، فكان يؤثِر الصمت وقلبه يحترق.

رفض هاتفها ذلك الصمت الممتع، ليعلن عن اتصال أحدهم، لم يظهر اسم متصل، يبدو أن أحدهم يهاتفها من رقم لا تعرفه:

- الو؟
- .....
- والمطلوب مني؟!
- .....
- ربنا وحده هو اللي بيسامح والمفروض ماتطلبش الغفران من غيره.

انهت الاتصال، وضعت هاتفها أمامها، لتتذكر كل الأحداث السيئة التي مرت بها، لمعت عيناها لتنذر عن احتلال دموعها لسعادتها، قاومت ذلك الشعور بشدة، أدرك ضياء أن المكالمة كانت من شخص تعرفه مسبقًا، حاول أن يخرجها من وحدتها، رغم الألم الذي مزق قلبه لأجلها وضعها أمامها كوكتيل الفواكه.

- بصي يا ستي، دي خفخاخينا من عند عم أبو سالم، ماكلتش في حياتي أجمل منها، ومتأكد إنك هتخليني أجيبها كل يوم.

أدركت أنه شعر بمحتوى المكالمة، قاومت رغبتها في البكاء، ابتسمت رافضةً ذلك الحزن الذي يحاول احتلال حياتها الجديدة.

- أخلص الشاورما الأول وبعدين نشوف حكاية عم أبو سالم... شكرًا بجد يا ضياء لكل اللي بتعمله معايا.
- قولي ضيا.. أحب أسمعها منك علشان بتفكرني بماما الله يرحمها لما كانت بتقولها لي.
- أنا سمعت قبل كدا إن كل واحد له نصيب من اسمه، وأنت فعلا كلك ضياء.

نجح ضياء في استرجاع ابتسامتها مرة أخرى واستعادتها لسعادتها التي حضرت بها صباحًا، التهما الشاورما مبتسمين.

***

على الشاطئ

بعد أذان العصر يخبرها ضياء أنه سيتوجه إلى زيارة هشام، ويعرض عليها أن يصطحبها إلى المنزل؛ فأخبرته أن يذهب لصديقه وأنها ستذهب للشاطئ.

أعشق تلك المدينة ولا أعلم السر وراء ذلك العشق منذ عُمرٍ بعيد، هل حقًا من الممكن أن نعشق مدينة لكون أن لنا أحدًا بها قبل حتى أن نعرفه، هل عشقي للإسكندرية من قبل أن تطأها قدمي، كان سببه إن ضياء يقطن بها؟

حدثتها نفسها بما يمكن أن يكون سببًا لحبها المدينة، لكنها رفضت فكرة أن تكون قد أحبت ضياء، فتجربتها مع مازن جعلتها تخشى اقتراب أحد من قلبها، وبالفعل قد أغلقت قلبها عليها، وبرغم من أنها أخبرت ضياء بتجربتها الوحيدة وسبب خروجها من منزلها لكنها لم تذكر له سببَ انفصالها عن مازن، ولم يحاول هو أن يسألها عن السبب.

أخيرًا وجدت نفسها داخل الشاطئ، وتقترب من أحد الصخور التي تداعبها الأمواج معلنة لها في صخب عن الثورة التي تشتعل داخلها.

جلست ولم تبالِ بما أصابها من بلل، فقد كان ما يشغل خاطرها أهم بكثير، فهى لا تريد التورط في علاقة حب جديدة مع أيّ شخص.

حاولت السيطرة على دموعها دون جدوى، فقد كان بداخلها بركان لا يهدأ ينذرها دائمًا باقتراب انفجاره.

***

قبل شهرين

في هدوء ما بعد العصر، حيث تقل الحركة وتعمّ السكينة في الأرجاء، كانت في شُرفتها تداعب بعض الأزهار التي قامت بزراعتها ورعايتها حتى نَمَت بين أحضانها وكأنها ابنتها، شعرت بشيء يزعجها لم تعلم مصدره، وخزٌ بالقلب أصابها حين مر مازن بخيالها، حينها شعرت بأن مكروه قد أصابه، أمسكت هاتفها وأسرعت بالاتصال به، لكنه لم يجيب على اتصالها، بدأ قلقها يزداد، أتى صوت والدتها من الداخل تنادي عليها:

- دنيا.
- نعم يا ماما.

تدخل إلى غرفة الاستقبال لتتحدث مع والدتها وتعرف ماذا تريد منها.

- أنا هروح لخالتك تعبانة شوية، بابا نايم جوه، لما يصحى ابقى قولي له، أنا مش هتأخر، لما أم لسانين تيجي من الدرس خليها تاكل، أنا محضرة الغدا.
- حاضر يا ماما.

حاولت الاتصال به مرة أخرى دون إجابة منه، فتركت له رسالة على واتساب تخبره أن يتصل عليها لتطمئن عليه، توجهت مباشرة لتجلس على مكتبها لاستكمال الرواية التي بدأت قراءتها منذ أيام، لكن قلقها أحال دون القراءة، انتقلت لسريرها، استندت برأسها على حافته، جالت عيناها بين سقف غرفتها وهاتفها، لم تشعر بمرور الوقت وهي في تلك الحالة وهذا الوضع.

ناهيك عن الانتظار الذي يُطيل الوقت بشكل عبقري، حتى أعلن لها هاتفها عن استقبال مكالمة، التقطت هاتفها بحالة تلهُّف شديدة، أجابت مسرعة:

- حبيبي وحشتني، طمني عليك، أنت كويس؟

- .....

- صوتك بيقول إنك لسه نايم.

تأتي الإجابة من الطرف الآخر:

- صحيت يا حبيتي وكنت بحلم بكِ، مش عايزة تعرفي الحلم؟

- مازن طمني عليك الأول وبعدين هعرف كل الأحلام.

- بقول لك إيه ما تيجي نخرج.

- هنروح فين؟

- المكان اللي يعجبك، هعدي عليكِ أخدك.

وافقت على الخروج معه وبدأت في تجهيز نفسها، في هذه الأثناء سمعت وقع أقدام خارج مجرتها، فخرجت من الغرفة لتستكشف الأمر.

- بابا أنت صحيت.

لم تنتظر منه إجابة وأكملت حديثها أثناء توجهه للحمام، كانت في عجالة من أمرها حتى تذهب لمقابلة حبيبها.

- خالتو تعبانة، وماما راحت تزورها، وبتقول لك مش هتتأخر وبعد إذنك أنا خارجة شوية وراجعة.

وقف مواجهًا لها وفي عينيه تحذير وحب، ربت على كتفها:

- مش هسألك رايحة فين، لأني بثق فيكِ وفي تصرفاتك، المهم خلي بالك على نفسك.

قبَّل جبينها وانصرف، توجهت إلى غرفتها لتستكمل ما بدأته، انتهت بسرعة من تصفيف شعرها، وضعت القليل من البودرة على وجهها، كانت ترتدي فستانها الأزرق الزهري الذي ابتاعه لها أباها في ذكرى مولدها، كانت تبدو أكثر جمالًا به، خرجت من منزلها متوجهة إلى

نهاية شارعها كما هو المتفق مع مازن، وجدته بانتظارها، أطلق صافرة تعلن عن انبهاره بشياكتها، فتح لها باب السيارة:

- اركبي يا حبيبتي.
- على فين بقى؟
- إيه رأيك نروح ناخد لانش في النيل؟
- لانش في الوقت دا؟ بس أنا موافقة.

انطلق مسرعًا بالسيارة، نظرت إليه بكل الحب والحنان، فجأة علت ضحكاتها.

- ضحكيني معاكِ.
- بقى حد يصدق أن أنا قاعدة جانبك مايفصلنيش عنك غير ربع متر بس، بعدما كنت فاكرني مغرورة ومتكبرة، والحقيقة إني كنت خايفة حد يقرب من قلبي من كتر حوادث الخيانة اللي كنت بشوف صحباتي واقعين فيها.

أثناء غرقها في الحديث والنظر إليه، لم تنتبه لانحرافه عن الطريق المقصود، فقد كان مصدر أمانها، وأيضًا في الظلام تتشابه الطرق، وفي غفلة منها وضع يده على قدمها يداعبها، تفاجأت بطريق شبه خالي من المارة، وبنظرة من تمكن من فريسته:

- صدقي يا حبيبتي صدقي، كل أصحابي قالوا لي إنك صعبة وإن ماحدش عرف يقرب لك، لكن أنا اتحديتهم كلهم، ووصلت، ولسه هوصل.
- مازن! أنت بتعمل إيه؟ وإيه اللي بتقوله دا؟ وإيه اللي جبنا هنا.
- أنا اللي جبتنا يا حبيبتي، هو حد غيري اللي سايق!

كبس زر في تابلوه السيارة؛ ليتراجع الكرسي ببطء للخلف، أدركت حينها أنها قد ضاعت، ضاع مستقبلها، ضاعت ثقة أبيها، تراءت لها صورة أبيها وعيناه يملؤهما الحنان وتردد صوته على مسامعها يطمئن قلبها:

- أنا واثق فيكِ يا بنتي.

أفاقت من شرودها ولا زالت صورة أبيها أمامها تقوّي من قلبه، لكن كيف الخلاص وقد باتت بين أنياب الذئب الذي ظنت لوهلة أنه يمتلك من البراءة ما جعلت ثقتها فيه لا تهتز، كيف لها أن تحسن التصرف في هذا الوضع، مهما ارتفع صوتها بالصراخ فلن يسمعها أحد، في هذه الأثناء تجرد مازن من شيم الإنسانية والأدب ونسى الله، حاول بشتى الطرق أن يصل إلى مطلبه ولم يلق بالًا لتمزق روح الفتاة ولا كان مهتمًا بما قد يصيبها.

لكنها بحسن وسرعة تصرف استطاعت أن تثبت له أنها تريد مثل ما يريد وأنه يجب أن تتجهز لمثل هذا الأمر الجلل، بكل الخدعة المستحبة المطلوبة في مثل هذا الموقف -حفظكم الله- استطاعت أن تجعله يذهب بها حتى باب بيتها، أي إلى بر الأمان!

صعدت درجات السلم على جناح السعادة والثناء تخلطهم الدموع لتصنع أمل جديد لحياتها، فتحت الباب بمفتاحها لتجد أباها يجلس على أريكته يطالع الجريدة كعادته عندما ينشغل الجميع عنه، لم تشعر إلا بيد أبيها تلامس شعرها في حنو، زاد انهمار دموعها مما أثار فضول أبيها وتسارع السؤال على لسانه:

- مالك يا بنتي؟
- بابا أرجوك سامحني، كنت المفروض آخد رأيك من البداية وأستفيد من تجاربك وخبرتك في الحياة.
- يا بنتي فيه إيه؟ اهدي وفهميني إيه فيكِ؟
- بابا أنا مش هقدر أحكي أيّ حاجه دلوقتي، بس وعد مني هحكي لك عن كل حاجة وبالتفصيل، لكن فيه واحد تحت مستنيني بعربيته ممكن تنزل تمشيه وتقوله مايحاولش يعرفني تاني؟

***

على الشاطئ

مسحت دموعها التي تدفقت مع تدفق ذكرياتها التي كانت كفيلة بإصرارها على قرارها التي اتخذته بعدم اقتراب أحد من قلبها، حتى ولو كان ضياء.

فالرجال يلهثون خلف الأنثى التي يصعب عليهم منالها، وعندما يضمن أحدهم قلبها، يتلذذ بكل ما أوتى من ألوان الإهمال والتجاهل ليحطم هذا القلب الذي آمن به ليتركه لهشاشته ويرحل.

فجميعهم مازن مهما اختلفت ألوانهم وأسماؤهم، لا يرون في المرأة سوى جسد يطفئ اشتعال غرائزهم العفنة.

هذا كان لقاءها بنفسها بعدما داعبتها الأمواج مخلفة في قلبها سعادة لم يستطع أحدهم زرعها داخلها من قبل، فبعد سويعات من جلوسها بالشاطئ، وبعدما لفظت له ما بداخلها من أوجاع، خرجت من أحزانها كيوم ولادتها، واستعادت جزء من رغبتها في الحياة الذي دُفن مع صدمتها بالحب.

ارتفعت الأمواج وقذفت ببعضها على وجنتيها تُقبلها لتغسل جميع الهموم المتقدة بداخلها، فأخفت آثار الحزن الذي رسمته الأيام على قلبها، فلم تتعرف على نفسها، لم يكن شاطئًا للأسرار، بل كان ملاذًا لتجديد الروح، صافحت أمواجه منتظرة موعد جديد، وهمت بالمغادرة حيث أشرف الليل على استقبال السقيع الذي يحمله معه في ليالي الشتاء الطويلة، فآثرت الذهاب إلى المنزل.

الفصل الخامس

في القاهرة

يجلس والد دنيا وزوجته وأبناؤه في صالة الجلوس؛ الأم منشغلة بمشاهدة التلفاز، والأب يبدو أنه يقرأ فاتورة الكهرباء ويقارنها بقراءة الرقم الموجود بالعداد.

- ابقى صحيني بكره بدري إن شاء الله يا أم خالد علشان أروح أشوف اللخبطة اللي في العداد دي.

فاطمة تتصفح الإنترنت من هاتفها، تغمز بعينيها لخالد الذي يبدو منشغلًا بهاتفه هو الآخر، وتوجه حديثها له، مما جعلها تقطع الحديث على أبويها:

- ألَّا فيه إيه يا خلود؟ هي دنيا مخصماك ولا حاجة؟
- خير يا أم الفصاحة، ذكاءك إزاى وصلك للنتيجة العبقرية دي؟
- أصلها يعني ولا عبرتك، ولا سألت فيك، ولا جت، ولا اتصلت، ولا كأن فرحك كمان أسبوع.
- بس يا أم جهل اسكتي، هي أصلا تعرف إيه اللي حصل؟
- صحيح يا بابا مش المفروض تبقى موجودة هي وعمتي؟
- هكلمها ياخالد وأشوف ظروفها.
- هاهاها.. ومين قال إنها مش عارفة، أنتم ناسين إني بكلمها كل يوم تليفون، ومبلغاها أخباركم طازة؟ جرى إيه يا توته ساكتة ليه يا قلبي من جوه؟
- تصدقي إنك تافهة، اكبري بقى شوية ومالكيش دعوة بماما.
- سيبها يا خالد تتدلع.
- دلع إيه يا ماما بس، دا مش دلع، دا هبل.. أنا خارج.

- على فين أخلودي، طبعا رايح تشوف نهنووه.
- فاطمة ادخلي ذاكري.
- جرى إيه يا فيرو، أجازة نص السنة اتنست كدا أوام.

يتجه خالد إلى الباب ليخرج، يشير الأب إلى زوجته لتتبعه للغرفة، تجد فاطمة نفسها بمفردها تضرب يدها في جيب بيجامتها لتخرج قطعة شكولاته تقضم منها وتلوكها بفمها، وباليد الأخرى تخرج من الجيب الآخر حفنة من الفول السوداني، تضع في فمها الممتلئ شوكولاتة حبات من الفول السوداني.

- والنبي أنا مخترعة، طعمهم حلو مع بعض، تدوق يا فيرو؟

في هذه الأثناء يصل الأب والأم تتبعه إلى غرفتهما، يدخلا الغرفة، ويخبر زوجته أنه يود الاتصال بدنيا لإبلاغها ويطمئن عليه، توافقه الأم، يأخذ الهاتف ويخرج اسمها من سجل المكالمات، يضع الهاتف على أذنيه منتظراً الرد.

***

في الإسكندرية

دنيا تساعد ضياء في تنسيق الزهور ورشها بالماء حتى لا تفقد جاذبيتها، تحاول دنيا الهروب من نظرات ضياء التي تشع بالحب والحياة، تحاول أن تتجنبه بشتى الطرق، يحاول ضياء أن يضفي على المكان شيئًا من المرح، فهو كما يحب الهدوء، أيضًا لا يرى في صمت دنيا إلا مقبرة تدفن ابتسامته.

- تعرفي إن وشك حلو علي، من يوم ما جيتِ والمكان شغال زي الفل.

- فكرتني بمازن كان دايمًا يقول لي: وشك حلو علي، وطلع في الآخر، كان مجرد كلام بيقوله علشان يوصل لقلبي.

كم مزقت قلب ضياء هذه الكلمات، أحالت الدنيا في قلبه لظلام لن يرى الشمس مرة أخرى، قذفت بكلماتها تلك وهي تعي جيدًا ما تقول، كانت تريد منه أن يفقد الأمل في قلبها، أن لا ينتظر منها الحب، فقد فقدت الثقة بجميع الرجال، ولن تلدغ مرة أخرى من قلب رجل آخر وحقيقة المحب يلدغ دائمًا مرة بعد أخرى، رنين هاتفها، أخرج ضياء من إحراجه التي تسببت كلماتها به.

توجهت خارج المحل لتجيب على الاتصال، يأتي صوت أبيها على الجانب الآخر ليخبرها بأن أخيها سيزف لصديقتها نهى الأسبوع المقبل، وبأن أباها أصرَّ على أن يتزوجا معه في منزله، وأنه ساعد خالد في الحصول على وظيفة براتب كبير، دخلت دنيا المحل مرة أخرى لتكمل مكالمتها بالداخل.

- نهى كلمتني وحكت لي على كل حاجة، وقالت لي رأي باباها في خالد وإنه شايف إنه مش زى شبان اليومين دول، وإنه كبر في نظره جدًا لما راح وشرحله ظروفه وقرر يساعده.

يكمل أبوها الحديث ليخبرها بأن والد نهى لم يكن ليفرط في حق ابنته لولا وجود الشبه بينه وبينهم، حدث عطل بالشبكة مما أدى لانقطاع الاتصال، حاولت دنيا معاودة الاتصال إلا أن رصيدها قد انتهى.

- ضيا لو سمحت أنا خارجة ثواني وراجعة.
- شكلك رايحه تشحني رصيد، خدي موبايلي وكلمي مكالمتك.

رفضت أن تأخذ منه الهاتف لكن مع إصراره لم تستطع إتمام رفضها، أخذته وهي في أشد الحرج من كلماتها التي ألقتها عليه منذ قليل، أخرجت رقم أبيها من هاتفها وكتبته على

هاتف ضياء وبدأت بالاتصال، وقد كان أبوها ذا فطنة؛ فعند سماع صوتها أدرك أن هذا الرقم لضياء، أجابته بالإيجاب، فهي مذ وطأت قدماها أرض الإسكندرية ومع أول فرصة سمحت بها الظروف للحديث مع أبيها لم تخفي عليه أيّ شيء، حاول الأب الاختصار في المكالمة، وعدت أباها بأنها ستحاول الحضور، وإن لم تستطع عليه الاعتذار لخالد بأن عمتي متعبة، وافقها الأب وأنهيا المكالمة.

***

كل الأيادي التي امتدت لانتشالك من وحدتك، هي أيضًا كانت تبحث عن يد أخرى تحنو عليها، لتنتشل نفسها من شبح الاغتراب داخل الروح.

في منزل ضياء

- وحشتني أوي يا أبو مريم.

على الجانب الآخر يجلس شابٌ متوسط الطول أسمر قليلًا، شعره خفيف قليلًا من الأمام يبدو أنه في طريقه للصلع، يضع سماعات الهاتف بأذنيه، يتوسط أريكة أرضية (قاعدة عربي).

- وأنت كمان يا منى، هانت كلها ٣ شهور وأنزل أجازة.
- ربنا يقرب البعيد.
- تحاول مريم خطف الهاتف من أمها مرددة: بابا
- مريومة يا قلب بابا.

تضع يدها على أذنيها في محاوله لتقليد أمها وكأنها تُحَدِّث أباها، وتذهب بعيدًا عن والدتها منشغلة بمكالمتها، تسمع منى مفتاح يدار في باب الشقة الخارجي، يدخل ضياء على غير عادته في هذا التوقيت، يبدو عليه الحزن، يدخل شاردًا حزينًا يلقى بالتحية على أخته

- سلام عليكم.
- وعليكم السلام يا حبيبي، إيه مالك؟ أنت مش متعود تيجي بدري كدا؟ فيك إيه؟
- ضياء دا يا منى، اديهولي أكلمه دا واحشني أووي.
- خد يا ضيا محمد عايز يكلمك.
- إزيك يا أبو مريم؟ لك وحشة والله.
- احسب ٣ شهور من النهاردا وهتلاقوني فوق دماغكم.
- ماتعرفش تبعت لي عقد عمل يا محمد.
- عقد؟ لمين؟
- ليَّ، عايز أسافر.

تضع منى يدها على قلبها مندهشة؛ فلم يكن ضياء يومًا من أنصار الغربة، وقد حاول معه زوجها لكنه كان دائمَ الرفضِ، ما الذى تغير جعله في هذه الحالة؟

- بتقول إيه يا ضيا، هتسافر وتسيبني لمين؟

لم يعطِ حديثها أيّ اهتمام، ويستطرد سائلًا محمد:

- هتعرف يا محمد.
- أنت تؤمرني، أبعت لك الخليج كله.
- شكرًا يا حبيبي، خد منى معاك.
- هاتها... كنا بنقول إيه بقى؟
- اقفل يا محمد دلوقتي.

تنهى المكالمة دون انتظار الرد من زوجها، وتتحدث إلى ضياء أثناء ذهابه لغرفته تتابعه الخطى:

- سفر إيه اللي عايز تسافره يا ضيا، هتسيبني لمين؟

ينهشه الحزن ولا يجد ما يجيب به على تساؤلات شقيقته، فيؤثر الصمت.

- ضيا رد علي، أنت مش أخويا الكبير عني، أنت أبويا وكل دنيتي، حتى أبو بنتي ما عاشرتوش غير ٦ شهور بس وسابني وسافر، هتسيبني لمين يا ضيا، طب هتسيب مريم لمين، ودنيا هي كمان هتسيبها لمين؟

تخونها دموعها، مما يجعله يضعف أمام تلك الدموع، يأخذها بين أحضانه ويربت على ظهرها، ثم ينظر إلى عينها وقد امتلأت عيناه بالدموع التي يحاول أن يسيطر عليها.

- أرجوك يا منى ماتصعبيش الدنيا علي.
- كلم محمد وقول له يصرف نظر.
- لازم أسافر يا منى.
- تقصد تهرب؟ تبقى غلطان لو فاكرني مش حاسة بك، أو مش واخدة بالي من نظرة الحب اللي في عينك لها، أنت حتة مني واللي واجعك واجعني.
- منى .....
- ماتسبهاش يا ضيا.. ماتسبناش كلنا.. كلنا بنتحامى فيك، كلنا مش هنقدر على البعد.
- مش هقدر.
- يا حبيبي فضفض، ماتكتمش جواك، طلع اللي في قلبك وصارحها، أقولها أنا، لكن أوعى تسافر، أموت يا ضيا، أموت والله.

تاخذه بين أحضانها وتبكي، وتفيض عيناها بالألم، فمنذ وفاة أبويهما لم يفترقا لحظة واحدة، حتى عندما تزوجت مرت عليه الشهور الستة أطول من عمره بأكمله، وقد رفض فكرة السفر؛ لأنه رفض معه الابتعاد عنها.

- ماتسبنيش يا ضيا ماليش غيرك، الصبح هكلم دنيا وأقول لها على اللي في قلبك.
- لا يا منى، مابقاش ينفع كلام، سيبي الأيام تنسيني وتنسيها، والبعد كفيل بالنسيان.

تخرط في بكاء وكأنما فقدت أبويها للمرة الثانية، خرجت وحملت مريم من الأرض وعانقتها كأنما تستمد من هذا الحضن الأمان، مسحت دموعها وعاوت الاتصال بزوجها.

- ماتسمعش كلامه يا محمد.
- إزاى يعني؟ أنت عارفة أخوكِ كويس، يقدر يخلي أيّ حد يبعت له العقد، ممكن تهدي يمكن يراجع نفسه ويغير رأيه.
- أخويا مابياخدش قرار ويرجع فيه.
- شوفتِ؟ أنت بنفسك أهو قلت، عايزاني أطلع وحش في نظر صاحبي، أنا هحاول أقنعه، بس لو لاقيته مصمم مافيش قدامى أيّ حل تاني.

***

في شقة دنيا

جلست دنيا على الأريكة أمام التلفاز، بعدما فشلت كل محاولتها لجذب النوم، فقد كانت أكثر لياليها أرقًا ولا تدري ما الذى أصابها، بيدها الريموت الخاص بالتلفاز، تشعر بضيق يمتلك روحها ولا تعرف مصدره، تحاول السيطرة على هذا الشعور، وتبدأ في تغيير قنوات التلفاز بعشوائية، رغم شرودها وعدم تركيزها فيما تبثه القنوات يأتي صوت رجالي يذيع نشرة الأخبار.

- زيادة أسعار الدولار.

تقوم بتغيير القناة.. فيلم عربي قديم، تستبدل القنوات وهي شبه فاقدة لوعيها.. أغنية لوردة: (أه لو قابلتك من زمان). تذكرت رقصها في الفرح على هذه النغمة، فتذهب مسرعة لقناة أخرى وكأنما تريد بذلك الهروب من ضياء، أغنية: (فات المعاد) لأم كلثوم:

«وعايزنا نرجع زي زمان قول للزمان ارجع يا زمان»

طرقات متتابعه على بابها يتنحى شرودها جانبًا وتنتبه، تذهب مسرعة لترى من بالخارج، تجد منى والدموع تغطى وجهها بأكمله، يتملكها الفزع والخوف وتسألها متلهفة:

- منى؟ مالك فيه إيه؟ ادخلي.
- ضياء خد شنطته ونزل، أرجوك الحقيه.
- نزل راح فين؟
- هيسافر القاهرة وبعدها على الكويت ومش هيجى قبل سنتين.

- الكويت؟ غريبه ماقليش على الموضوع دا.
- ضيا مجروح يا دنيا، غضبان ومش في وعيه.
- مش فاهمة حاجة!
- ضيا يحبك.

تظاهرت بالاندهاش رغم أنها كانت تشعر في كل تصرفاته بذلك الحب.

- أرجوك يا دنيا مش هيسمع لحد غيرك، أنا غلبت كلام معاه، لي أسبوع بترجاه، بس هو مصمم، مافيش غيرك هيقدر يأثر عليه.

تركت منى بمدخل الباب دون أن تتفوه بكلمة وأسرعت للخارج، جرت مسرعة تهبط درجات السلم، التوى كاحلها، دون أن تعيره أيّ انتباه، خرجت من الباب الرئيس للمنزل، لمحت ضياء وبيده حقيبته يقف بانتظار سيارة أجرة يستقلها.

- ضياااااااااء

نظر إليها دون أن يجيب على نداءها، اتجهت نحوه مسرعة رغم التواء قدمها، كادت أن تصتدم بإحدى السيارات وهي تعبر إليه الطريق.

- ضيا رايح فين؟

أشار إلى سيارة أجرة مسرعة، يبدو أن السائق لم ينتبه له، فلم يقف.

- ضيا لو سمحت رد علي، إزاي هتسيب أختك وبنتها لوحدهم من غير راجل؟
- ودا يهمك في حاجة؟
- أنت أول مرة تكلمني بالطريقة دي.
- تحبي أكلمك بأي طريقه؟ اااه المفروض أضرب لك تعظيم سلام، وأقول لك تحت أمرك يا مولاتى، واخد الشنطة وأطلع زي ما حضرتك أمرتي.

حديثه كان مليئًا بالغضب والجرح، أدركت من لهجته القاسية الحالة التي وصل إليها بسبب جفاءها وتجاهلها، لم تستطع أن تعاتبه أو حتى تلفت نظره لتغيره المفاجئ، فقد حمَّلت نفسها المسؤولية.

- طب ممكن تطلع دلوقتي وابقى سافر الصبح براحتك.
- هه.. أستاذتي الفاضلة بترجاني.
- .....

جذب ذراعيها بيديه وراح يهزها وكأنما ينفض عن نفسها غبار الخوف الذي حال دون قلبه، أو أن يتساقط الحب من جوفها ولا تضيع الوقت بالخوف والعناد وتخرج المكنون بقلبها، وتعترف بأنها لم تحب غيره، واستكمل حديثه ضاغطًا بيده على ذراعيها وبلسانه على قلبها:

- تجربة فاشلة خليتك تخافي تخوضي غيرها، بقيتِ شايفة الناس كلها مازن، أو إن الملاك البرئ لسه يحب شيطانه المفضل.. فوق بقى.

***

لم أحاول البحث عن الكلمات المنمقة، أنا أبحث عن الأمان في الحب، فالكلمات لا تصنع سعادتي.

بجميع لياليها، ساحرة، ساهرة، ممتعة، تتغنى شوارع الإسكندرية، يبدو قلبها متراقصًا، أضواء الشوارع تشع بهجة، توحي بالأفراح مزيجًا من الأغاني القديمة والحديثة، متداخلة الأنغام على مسامع الجميع، المارة كل منهم يحمل قصته على أكتافه ويتحرك بها.

في الأنحاء حركة مستمرة، يبدو أن الجميع يستمتع ليلًا ألا أحد الأركان، تحديدًا قلب بطلتنا، يبدو أنه شاردٌ يمتلئ همومًا ويتمزق ألمًا، لا تدري أهو الحنين أم الخوف أم الفراغ الذي أحدثه غياب ضياء، حتى منى لم تعد أنيستها في تلك الغربة، وتتعامل معها بشكل رسمي، ولها الحق فقد كانت السبب في غياب سندها عنها.

تبكي كل شيء.. ثقتها بمازن، خوفها من ضياء، حتى حبه الذي لم يبوح به، لكنه كان يفيض من عينيه.

حقًا لا تستطيع أن تنسى نظراته الحانية، تركت شرفتها، ذهبت إلى سريرها في محاولة يائسة للنوم، ولكن آنى يأتي هذا المنتظر الذي حاولت جاهدة في جميع لياليها أن تتصالح معه، لكنه جفاها.

يبدو أن كل ما حولها يرفض غياب ضياء، تركت الغرفة لتصنع كوبَ يانسون يساعدها على الاسترخاء والنوم، أشعلت الموقد ووضعت عليه الماء ليغلي، وقامت بوضع السكر واليانسون في كوبها، أثناء انتظارها غليان الماء، سمعت بالخارج صوتًا يناديها:

- دنيا.. جبت لك شاورما، عارف إنك بتحبيها وأكيد لك كتير ماكلتيش، يالا بسرعة قبل متبرد.

خرجت مسرعة من المطبخ، لم تجد أحدًا، تسمَّرت قدماها، عادت للمطبخ وأطفأت النار، تركت كل شيء وجلست على أحد الكراسي الموجودة على منضدة المطبخ، خانتها عيناها دون إرادتها، ولأول مرة لم تهرب إلى لنوم كعادتها.

أشرق الصبح باسمًا يلقي بالتحية على الجميع، تسابقت العصافير فيما بينها تشدو بأجمل الألحان، أرسلت الشمس حفنة من أشعتها تداعب بها الأرض، استبدلت ملابسها استعدادًا للذهاب إلى المحل، طرقت الباب على مُنى لتلقي عليها تحية الصباح، استقبلتها منى بعينين

يملؤهما اللوم، هربت دنيا من نظرات منى، فعيناها تقول الكثير منذ رحيل ضياء، لكن شيئًا ما يمنعها.

- صباح الخير يا منى، أنا نازلة المحل، عايزة حاجة قبل ما أنزل؟
- صباح النور، لا شكرًا، خلي بالك على نفسك.
- ضيا خلاص حجز طيارة بكره.

لم تتوقع أن يحدث ذلك، خرجت دون الرد على منى، هبطت الدرجات بسرعة وبشكل عشوائي، وصلت المحل وجدته خالي من الحياة، حتى الورود فقدت بهجتها، فضياء يضيف سحره الخاص لأي شيء وأي مكان، عقارب الساعة تجاوزت الحادية عشرة، فقدت شهيتها لكل ما حولها، هاتفها أعلن التمرد على هذا الصمت الذي غلف يومها، أمسكت به لترى من المتصل، فقد اعتقدت أن يكون ضياء.

الفصل السادس

- الو... فيه حاجة يا بابا؟ حاضر.

انتفض قلبها؛ لأن والدها لم يأمرها أن تترك الإسكندرية منذ حضورها، فما الجديد؟ أيكون قد حدث مكروه لوالدتها؟

دون تردد أغلقت وعادت إلى منى تقص عليها ما حدث وأنها لا بد أن تغادر للقاهرة، ولولا وصية ضياء لانفجرت بها منى.

- ما تيجي معايا.
- ماينفعش أروح مكان من غير ما أقول لضياء وهو مش موجود.
- طب كلميه وقولي له.
- ماقدرش أجيب اسمك قدامه.

تخجل دنيا بشدة، فهي تشعر بالذنب تجاههم.

- طب أنا همشي وهطمن عليك كل شوية.
- فيك الخير.

لم تغضب دنيا من رد منى الذي يفتقد الود الذي اعتادته منها؛ لأنها تعلم ما ألَمَّ بها، توجهت دنيا إلى محطة الميكروباص جلست شاردة تزاحمت في رأسها الأفكار والصور، مازن، أمها، أبيها، أشقائها، ضياء، رقصتها معه، حنانه مع كل من حوله، حتى شدته معها، أخيرًا وصلت القاهرة بعد مرور الساعات عليها أطول من عمرها بأكمله، أشارت لإحدى سيارات الأجرة لتأخذها لمنزلها، استنشقت عبير الشوارع المنطلق مع رحلتها كأنما تحتضن الشوارع بكل حواسها.

توقفت السيارة أمام منزلها، كان النهار يحاول الهروب مختبئًا خلف سياج الغروب، وقفت تنظر لمنزلها، لشرفة غرفتها. طرقت على الباب طرقات خفيفة فهي أبدًا لم تفضل ضرب الجرس وإنما كانت تطرق الباب بإحدى أصابع يدها.

وعند فتح الباب وجدت أمامها والدتها، ارتمت بلهفة بين أحضانها، وعيناها يملؤهما دموع الشوق.

- يا حبيبتي يا بنتي.. وحشتيني أوي.
- ماما أنت كويسة؟
- طول ما أنت قدامي يا حبيبتي أبقى كويسة وبخير.

تسحبها من يدها إلى الداخل، ترى أمامها أباها ممسك بأحد الكتب كان يتظاهر بقراءته، جرت عليه بلهفة تقبل يده، جلست على الأرض تحت قدميه، داعب شعرها برفق، كأنما يسحب من جسدها كل مرارة الأيام الماضية، دموعها تأبى الرجوع واندفعت متحدية كل شيء:

- وحشتني أوي يا بابا، إيه اللي حصل؟
- وحشتيني وقلت أشوفك قبل ما أموت، طالما أنت عجبتك القعدة هناك.
- بعد الشر عنك يا بابا.

داخلها ينبئها بأن الموضوع غريب، فماذا يمكن أن يكون؟ أخبرها والدها بأن تذهب لتستريح من السفر قبل أن يتناولوا العشاء، ذهبت وقد استشعرت أنه ربما يكون خالد وزوجته ووالد زوجته سيتناولون العشاء معهم، وربما يكون هذا سبب إصرار والدها على حضورها، دخلت غرفتها، بعدها راحت تتفحص زهورها داخل الشرفة، يبدو أن والدتها لم تهمل زهورها وكانت تعتني بها في غيابها.

انقبض قلبها وهي في الشرفة لتتذكر كل أحداثها مع مازن، دخلت غرفتها مسرعة كالهارب من شخص يطارده، أحكمت إغلاق الشرفة، استلقت على سريرها وتحسسته بيدها.

- ضيا مسافر بكره، مسافر، مسافر.

هزتها الكلمات، قاومت نفسها وضعت يدها على أذنها كأنما تمنع أحدهم من الكلام في رأسها.

- خلاص يا منى، أرجوك بلاش تعذبيني، مش عايزة أسمع.

حاولت الهروب من صوت منى، راحت لتختبئ في دفء أبيها، ارتمت بين أحضانه.

- وحشني حضنك أوي يا بابا.
- مش هقول لك إن أنت اللي اختارتِ تبعدي عنه، بدال ما تطلعي اللي جواكِ يمكن تلاقي عند أيّ حد فينا حل.

جرس الباب يدق، استشعرت من نمط الرنة أنه ضياء، لكنها اعتقدت أنها عادت إلى هلاوسها مرة أخرى، إلا أن أفاقها صوت الأم من المطبخ ليأكد لها أن هناك طارق على الباب:

- حاضر... جايه اهو.
- خليكِ أنت يا ماما أنا هفتح.

تفتح الباب، تتمنى أنها لو لم تذهب لفتحه، تلعثمت، وتحجر الكلام في لسانها، تمنت لو أن الأرض ابتلعتها.

- مين يا دنيا؟
- دا يا بابا دا.

ينظر إليها ضياء بمزيج من الحب والعتاب والشوق، احتضنتها نظرته الحانية، يأتي الأب من الداخل لتزيد الأمور تعقيدًا داخلها.

- تعالى يا ضيا يا ابني، واقف على الباب ليه؟

يدخل ضياء دون التفوه بحرف وابتسامته تزيد من وسامته، أما دنيا فقد كانت مغيبة عن العالم، حدثت نفسها بالكثير وارتفع صوتها في وشوشه مبهمة لنفسها:

- بابا وضيا.. عرفوا بعض إزاى.. لا وضيا عارف البيت كمان.. طب إزاي؟

تتذكر ذلك اليوم الذي انقطعت فيه محادثة والدها وأصر هو أن تتحدث من هاتفه، اتجهت نحوه ثائرة:

- أنت اسغليت إني كلمت بابا من عندك وكلمته من ورايا، أنت عايز إيه بالظبط يا ضيا؟
- أنت إزاي بتتكلمي بالأسلوب دا، وهو من أدبه ساكت وما اتكلمش.
- آسفة يا بابا.
- أسفك غير مقبول، أنا اللي سجلت الرقم وكنت بكلمه أطمن عليك، وأنا اللي طلبت منه مايقولكيش حاجة.

في الحقيقة، كان يتحدث هاتفيًا مع ضياء حتى يتأكد بخبرته من أخلاق ضياء وأنه لن يحاول استغلال وجودها وحيدة ويقوم بغوايتها، شعرت بالخجل من تسرعها، حاولت الذهاب لغرفتها فاوقفها والدها:

- اقعدي رايحه فين؟
- هروح أساعد ماما.
- ماما مش محتاجه مساعدة، اتفضلي اقعدي.

- .....
- أنا جبتك النهاردا علشان أسلم عليك قبل ما تسافر.
- وأنا ماكنتش هقدر أمشي قبل ما أجي وأشوفك.
- يعز علي يا ابني تسافر وتسيب البلد، لكن هنعمل إيه ما باليد حيلة.

ينظر إلى دنيا باغتياظ شديد، لكنه لن يستطيع إجبارها على ما يراه مناسبًا، فمنذ صغرها وقد عودها على حرية الاختيار في جميع أمورها، كانت الأم قد انتهت من تحضير السفرة، دعهتم لتناول العشاء، جلسوا جميعًا والصمت يحيطهم، كسرت الأم هذا الجليد الذي غلف جلستهم موجهه حديثها لضياء:

- والنبي يا ضيا يا ابني تطمني عليك لما توصل بالسلامة، قلبي هيفضل واكلني عليك لحد ما تطمني.
- حاضر يا ماما.
- الله.. ماما طالعة من بقك زي العسل.

يجلس ضياء على الطاولة مقابل دنيا، ينظر إليها يبدو شرودها الذي غلفه الحزن واضحًا للجميع، لكنها تتظاهر باللامبالاة، ترفع عينيها عن طبقها تواجه نظرات ضياء لها، تتلعثم نظراتها وتذهب بعيدًا عن عينيه، يخجل ضياء وينظر هو الآخر في طبقه، تحاول اختلاس النظر مرة أخرى لتجده منشغلًا بتناول الطعام، يرفع نظره تصطدم نظراتهما مرة أخرى، يهربان في التهام الطعام، يلاحظ الأب تلك النظرات فيقطع تواصلهم:

- عارف يا ضيا يا ابني لولا إن فاطمة لسه بتدرس كنت جوزتها لك، أقول لك استناها لما تخلص.

تقف كلمات أبيها متمردة في حلقها ترفض الذهاب لمعدتها، يبتسم ضياء ويتابع تناول طعامه، يعاود الجميع الصمت مرة أخرى، عدا صوت الملاعق وهي تداعب الأطباق في

مرح وسلام، يكف ضيا يده عن الطعام معلنًا الانتهاء يتبعه الأب والأم ودنيا في عالمها، لم تنتبه أن الجميع انهى طعامه إلاها، صوت والدها أفاقها:

- تعالى يا ضيا يا ابني نشرب القهوة جوه، القهوة يا أم خالد.
- أنا هعملها يا بابا.

تذهب لإعداد القهوة، تحضر فنجانًا واحدًا من القهوة وكوبًا مملوءًا بعصير الليمون، ينظر ضيا للصينية التي تحملها بين يديها، ينظر إليها الأب نظرة مغزاها: «هذا هو الحب، فلمَ كل هذه المكابرة»؟ تزيدها الكلمات التي انطلقت من عين أبيها من التوتر والارتباك حتى كادت المشروبات تقع من يديها؛ مما جعل الكلمات تخرج سلسة دون أن تعي ما تقول:

- أصل ضيا يحب يشرب ليمون بعد الأكل.

تضع الصينية على الطاولة التي أمامهم، ويبدأ ضياء في ارتشاف الليمون تتبعها رشفة قهوة من أبيها تنظر إلى أبيها تارة وإلى ضياء تطيل النظر كأنما تملأ خزان عينيها منه لتستطيع أن تراه بعد مغادرته، لكن الموضوع لم يمر عليها مرور الكرام؛ فقد كانت تشعر بأن ضيا ووالدها يخفيان عنها سر ما.

جرس الباب يعلو صراخه مستغيثًا بأحدهم أن يفتح الباب، والدتها منشغلة بتنظيف الأوانى وتنظيف المطبخ بعد مشقة يوم كامل، تذهب لترى من بالخارج، تزيد دهشتها وتتسع عيناها، هل دعاها والدها لترى كل هذه المفاجأت، يعلو صوتها تصاحبه حدة في القول مما يلفت نظر كل من بالداخل لها:

- إيه اللي جابك هنا وعايز مني إيه؟
- وحشتيني يا دنيا، محتاج أتكلم معاكِ.
- مابقاش فيه بيننا أيّ كلام تاني.
- لأ فيه.. هفضل واقف على الباب كتير ولا إيه؟

- يا بجاحتك يا أخي.
- مين يا دنيا.
- أنا مازن يا عمي.

يدخل مازن ويترك دنيا لدهشتها، يذهب إلى مجلس أبيها وكأنما أصبح واحدًا من أفراد الأسرة، يجلس بجوار أبيها وينظر إلى ضياء بتفحص، يهم ضياء بالوقوف مستأذنًا.

- على فين يا ضياء، لسه بدري يا ابني.
- معلش يا عمي يا دوب الحق أحضر نفسي وأنام شوية.
- مع السلامة يا ابني.

يتجه ضيا نحو الباب ليغادر، فيجد دنيا ما زالت بجوار الباب متسمرة، لم تفق بعد من مفاجآت يومها تنبه لوجود ضياء، فتتسارع الكلمات على لسانها.

- رايح فين؟ صحيح هتسافر بكرة بجد؟
- إن شاء الله الطيارة هتتحرك الساعة ٤ بعد العصر، أشوف وشك بخير.

يخرج ضياء تتابعه بنظراتها حتى يغيب تمامًا عن عينيها، تأتي فاطمة عائدة من درسها تحمل بين يديها كتب الدراسة تبدو هائمة وتتنهد:

- مين القمر اللي لسه خارج من عندنا، يخربيت جماله.

لا تجيبها دنيا، تنظر إلى الداخل بنصف رأسها فترى مازن يجلس مع أبيها.

- ومين القمر التاني دا كمان، إيه الحكاية النهاردا قمرين في ليلة واحدة، قلبي!

تضع يدها على قلبها متصنعة الإغماء، تنبه لوجود دنيا ترمى نفسها عليها وتقوم باحتضانها وتقبيلها.

- قلبي يا دودو وحشتيني، كدا خيانة إزاي أبقى مكلماكِ الصبح وماتقوليليش إنك جايه، اااه علشان كدا في بيتنا قرين، ولاد الجيران؟ أوعدني يارب بربع قر.

تردد أغنية:

«قرين دول ولا عينيك»

تترك دنيا الباب مفتوحًا وتذهب إلى أبيها، تستمع لكلمات مازن التي يوجهها لأبيها:

- يا عمي، أنا طالب إيد دنيا.
- وأنا مش موافقة.
- أنا بحبك يا دنيا وجيت لحد بيتك.
- حب؟ الحب دا في السينما بس، علشان نشوف الفيلم لآخره، وأنا عرفت نهاية فيلمي من زمان.
- ماتبقيش قاسية علي، أنا فعلًا عرفت إني بحبك في بعدك.
- قاسية؟! إزاى أكون قاسية مع أستاذي الروحي، البنى آدم الوحيد اللي اتعلمت على ايده درس لو عشت عمري كله بين الكتب عمري ما كنت هتعلمه.

الأب يحاول نهرها وإجبارها على الصمت.

- آسفة يا بابا لأول مرة مش هسكت، أنا مش موافقة يا مازن، الحب الحقيقي تضحية، بنتخلى فيه عن رغباتنا، مش صيدة نضحك عليها باسم الحب، وفيه هبل كتير زيي بيصدقوا، الحب أمان، تقدر تديني الأمان؟ لو كنت تقدر كنت حسيته معاك زمان، بعد إذنك يا بابا أنا داخلة أوضتي.

ينسحب مازن بهدوء وانكسار يبدو حقيقيًا، فقد أدرك قيمة امرأة أحبته بصدق، ورفضته أيضًا بصدق ولكن بعد فوات الأوان.

دنيا في غرفتها تجلس أمام مرآتها، تنعكس صورتها تتحس وجهها الذي تحاول التعرف على ملامحه بعد هذه الأحداث المليئة بالانفعالات، خبطات خفيفة على باب غرفتها وأبوها ينادي عليها، يفتح عليها باب غرفتها يمسك يدها بحنان ويجلسها أمامه على سريرها:

- لو في ايدي الاختيار، هختار اللي كنت قدامه فريسة سهلة يقدر عليها وهي لوحدها، عارفة يا دنيا ماكنتش بعرف أنام من قلقي عليك، لحد اليوم اللي كلمتيني من عند ضياء لحظتها، بس حسيت إنها رسالة لي إني أطمن عليك، اتصلت به وعرفت منه إنه مسافر سنتين، مقالش هيهرب ليه؟
- يا بابا...
- كلكم بتهربوا ليه؟ ليه ماتواجهوش؟ هو هيهرب ويسافر نفس اللي أنت عملتيه قبل كدا، وأنت بتهربي، رغم إنك مش عايزاه يسافر، الهروب عمره ما كان حل، ماتخليش الحب الحقيقي يهرب منك.
- يا بابا ماحدش فاهمني... أنا...
- الأمان اللي كلمتِ عنه مازن هو ضيا، فكري كويس يا بنتي، أنا بتمنى أشوف بنتي سعيدة، تصبحي على خير.

يتركها أبوها لتغرق في تفكيرها دون أن تجد لنفسها طوق نجاة يأخذ بيدها لشط حياتها.

ضيا هيسافر بكره (صوت منى)

ضيا الأمان (صوت أبوها)

الطيارة هتقوم الساعة ٤ بعد العصر (صوت ضيا)

يقوم الأب بتبديل ملابسة استعدادًا للنوم، تجلس الأم تتثاءب فقد كان يومها شاقًا ومتعبًا.

- بنتك تاية ولازم أقف جانبها.
- هتعمل إيه بس يا أبو خالد، فيه واحدة ترفض عريس زي مازن، دي البت بطة ورتني العربية بتاعته سادة الشارع كله، دي البدلة اللي لابسها تساوي كام ألف، بنتك من يومها غاوية فقر.
- نامي يا أم خالد.
- مالك يا فريد، حاسه إنك مش طايق كلامي.
- أنت مش فاهمة حاجة، نامي الله يرضي عليكِ.

أمسك هاتفه وأسرع بإجراء مكالمة، لم يطل انتظاره حتى أتاه الرد من الطرف الاخر

- أيوه يا ابني
- .....
- مافيش وقت لسلامات، اسمعني كويس، اللي أنت سبته ومشيت دا مازن وجاى يطلب إيد دنيا، ماعرفش إن كانت حكت لك عنه ولا لأ.. لكن اللي أعرفه كويس إنك بتحبها ولازم تدافع عن حبك لآخر لحظة، روح سافر براحتك وسيبها له.

يأتي صوت ضياء عبر الهاتف، يمتلأ آسى:

- يا عمي المهم هي بتحب مين؟
- بتحبك أنت.
- لا يا عمي.. دنيا عايشة في الماضي بكل تفاصيله، وأعتقد إنها موافقة على مازن ربنا يسعدها.
- أنت شايف كدا، طيب تصبح على خير.

ينهى المكالمة لكنه لم ييأس ويحاول التفكير في حل آخر.

فبرغم الحب يبقى العناد والمكابرة هما الطوق الذي يلفانه حول عنق الحب ليصرعاه.

يسمع صوت أنفاس زوجته يخبره بغرقها في ثبات عميق، مما يؤكد أنها لم تستمع لحرف من مكالمته، يترك السرير خشية إيقاظها، فهو يعلم كم عانت في يومها، ويعلم أيضا كم المعاناة في ابتعاد دنيا التي حرمتها النوم طيلة هذه الشهور الماضية، أجرى اتصالا آخر:

- إزيك يا نهى؟ خالد جنبك؟
- لا يا بابا نايم جوه، أنا بره بتفرج عند التليفزيون.
- طب كويس جدا عايزك في موضوع مهم.

تجلس نهى على الأريكة أمامها التليفزيون يبث أحداث المسلسل التركي الذي تتابعه وتنتظر موعده يوميًا، وفي يدها طبق به بعض حبات الذرة تضعها أمامها على المنضدة لتنبه جيدًا لحديث حماها.

- حاضر يا بابا.

يمر الليل بطيئًا متثاقلًا عندما نكون في ساحة الانتظار، هكذا مرت هذه الليلة كجوز تتعكز على عصا في رحله من الشمال إلى الجنوب.

حتى أعلنت السماء عن ميلاد يوم آخر، أشرقت بضياء سطع على الجميع، خرجت دنيا من غرفتها متوجهة إلى الحمام، وجدت أباها يجلس في الصاله ويبدو من مظهره أنه لم يذق للنوم طعمًا مثلها، جفونه منتفخة، وأكواب كثيرة من القهوة موضوعه أمامه رغم تحذير الطبيب له من عدم الإكثار من شربها، لكنه يبدو أنه لا يبالي بصحته، وجهت لأبيها التحية:

- صباح الخير يا بابا.. شكلك مانمتش كويس.
- صباح الخير.

وقام ليذهب لغرفته، اصطدم بزوجته أثناء خرجها من الغرفة وهيتترنح فور استيقاظها.

- صباح الفل يا قمر قلبي، روحي خدي حمامك على ما أكون جهزت الفطار.
- يا حبيبتي يا ماما وحشني فطارك.

توجهت دنيا إلى الحمام، والأب إلى غرفته، والأم إلى المطبخ، كل منهم انشغل بمهامه، وبعد دقائق تجمعوا لتناول الإفطار، يذهب الأب للصالون لاحتساء القهوة، تذهب دنيا للجلوس معه فقد اشتاقت أنفاسه التي امتلأ بها المنزل ولا تريد مفارقته، عيناه حائرتان بين ساعته والكتاب الذي يتظاهر بقراءته، تشعر دنيا بثقل الصمت الذي أطبق عليهم، تتوجه للمطبخ لتساعد والدتها، لكن الأم لا تريد أن تتعبها وترفض مشاركتها إعداد الطعام، مدعية أنها لا تحب من يتدخل في اختصاصها، تخرج دنيا للتوجه لغرفتها، تمسك هاتفها تحاول تصفح الإنترنت، تجد صورة ضياء على الشاطئ الذي قابلته فيها للمرة الأولى، قد قام بمشاركتها مع العامه منذ ثلاثة أيام، دخلت على التعليقات لتقرأها، تجد معظمهم رجال، وتجد تعليق لهشام:

- هتوحشني أوي يا أبو الضو، الله يجازي اللي كان السبب، بس قلبي حاسس إنك هتغير رأيك.

في هذه الأثناء تصلها رسالة من مازان، لم تعِرها اهتمام وأغلقت الإنترنت، يتملكها الضيق، فتحت سجل المكالمات للاتصال بمنى للاطمئنان عليها، لا تجيب منى على اتصالها، يتمكن منها القلق والملل، تسمع جرس الباب لم تتحمس لفتحه، بعدها طرقات خفيفة على باب غرفتها وإذا بنهى تفتح الباب تقفز من مكانها تعانق نهى ويتبادلان القبل، تجلس نهى على طرف السرير بجوار دنيا يتحادثان كثيراً وتعاتبها نهى:

- بس أنا زعلانة منك، إزاى كل دا يحصل وأنا ماعرفش وخالد يقول لي إنك في المنصورة، أنا مش المفروض صاحبتك ولا إيه؟

- صحبتي وحبيبتي كمان بس أنا كنت تايهة ولقيتني في إسكندرية، وبعدين تزعلي ليه أنا مش كلمتك وحكيت لك عن كل حاجة؟
- كنت عايزة أقف معاكِ في محنتك من البداية، تعرفي نفسي أشوف ضياء دا، راجل بمعنى الكلمة.

تراقص قلبها لمجرد سماع اسمه، وكسا وجهها حمرة زادتها جمالًا لكنه لم يخفِ شحوبها الذي يصاحبها في لحظات خوفها، وتحدثت عنه كثيرًا وباستفاضة ابتسمت لها نهى وأخبرتها بأنها تشعر بالحب تجاه ضياء، وإن لم تستغل الفرصة سيضيع منها للأبد ولن تستطيع تعويضه، لكنه سيجد من تجعله ينساها، وإن الكثيرات يستطعن رسم الحنان على المغترب حتى لا يشعر بالغربة، وإنه ربما يأتي للقاهرة بعد العامين لديه طفلين، أثارت داخلها عن عمد مشاعر الغيرة، استأذنتها نهى لتجلس مع حماها، وتركتها لدوامة أخرى لحتما سيجد من تحنو عليه وتنسيه قسوتها، نهى تجلس بجوار والد خالد وابتسامة النصر تغلف وجهها وتتحدث معه بصوت خافت:

- بص يا بابا أكتر حاجه تحرك الواحدة إنها تحس إن فيه حد تاني ممكن ياخد مكانها، بعد ما كلمتني بالليل فضلت أعصر دماغي لحد ماوصلت للفكرة اللي قولت لك عليها دي، أنا متأكدة إنها بتحبه، طب إيه رأيك إنها هتطلع علينا دلوقتي وهتروح تمنعه يسافر.

ينظر إليها نظرة المشكك في كلامها، لم يطِلْ نظرته فقد جذب انتباهه خروج دنيا مرتدية بنطلون جينز وقميصًا أبيضَ اللون وبيدها حقيبة بيضاء، يبدو أنها تتأهب للخروج، أعاد النظر لنهى مندهشًا، فقد جلست معها دقائق فقط، وفعلت ما لم يستطع فعله كل هذا الوقت.

يبدو أن المرأة هي الوحيدة التي تمتلك مفاتيح امرأة مثلها.

- بابا أنا خارجة

- رايحه فين يا دودو.. الله دي الحبايب كلها متجمعة.. إزيك يا نهنوه.. الساعة كام دلوقتي يا جدعان؟

صوت فاطمه ياتى متثائبًا فقد استيقظت للتو، يخبرها أبوها أن الساعة الثانية عشرة ظهراً، تذهب إلى الحمام، أما دنيا فقد كانت تهبط السلم في هذه اللحظات لا ترى أمامها أحدًا، أشارت إلى سيارة أجرة، استقلتها، وصلت للمكان الذي تريده، ترجلت حتى دخلت من باب صالة المطار، بحثت عن ضياء في جميع الاستراحات دون جدوى، جلست يائسة على إحدى الترابيزات، استندت برأسها على يديها في يأس يصحبه شرود، مرت الدقائق ثقيلة تحمل معها كل الشكوك التي بثتها نهى في نفسها، نظرت أمامها وجدت ضياء يرتدي حلة أنيقة تصحبه فتاة ترتدي فستانَ الزفاف، على وجههما ابتسامة عريضة، قاومت دموعها، فيبدو أن نهى كانت محقة فقبل أن يغادر قامت إحداهن بالزواج منه، إذًا فلهذا السبب امتنع عن الاتصال بها طيله الأيام الماضية، فقد وجد من غمرته بالحنان، وقد استطاع نسيانها بسهولة، همت بالانصراف، رآها ضياء فقابلها بالابتسام كعادته، وقام بتعارفها مع العروس:

- حنان.. دنيا
- أنا كنت جايه أسلم على واحدة صاحبتي مسافرة.
- أثناء محاولتها المغادرة، أمسك يدها بقوة.
- ماشيه بسرعة ليه؟ وطالما اتقابلنا صدفة تبقى دي فرصة حلوة تتعرفي فيها على حنان، هتحبيها أوي.. اقعدي.

تجلس ومشاعر الغيرة تنهشها كلما تحدث ضياء وحنان بصوت خافت، لا تسمع غير صوت ضحكاتهم، قامت من مجلسها وأنفاسها متلاهثه تكاد تصل إلى رئتيها بالكاد.

- مبروك.

خرجت من أمامه تجري ودموعها تسبقها، وقفت أمام المطار تنتظر سيارة تقلها إلى منزلها، فإذا بيد تمسك يدها وتربت عليها بحنو، تلتفت خلفها لتصتدم بعينيه العاشقتين، تبكي بحرقة، تحاول الهروب منه تجري فيمسك بها.

- بحبك ودنيتي ناقصة دنيا.
- وحنان مراتك؟

يضحك مما يشعرها بالغيظ منه، فتفلت يدها من يده وتشير إلى سيارة أجرة، لا ينتبه لها سائقها.

- قصدك حنان أخت محمد جوز منى أختي؟
- مش عايزة أعرف قصة حياتها ولا هي مين، لو سمحت عايزة امشي.

ماتقلقيش كلنا هنمشي، بس عايز أوضح لك حاجة بسيطة، حنان تبقى أخت جوز أختي وصاحبه كتب عليها بتوكيل والمفروض إنها هتسافر معايا أوصلها لجوزها، أنا ركبتها الطيارة، وكلمت محمد يستناها هناك لأنى مش هقدر أسافر.

- يعني؟

يحرك رأسه بالنفي، ويشير إلى قلبه:

- أعيش إزاي في دنيا غير دنيتي، ماحدش يقدر يبدل قلبه، خصوصًا لو مشاعر حقيقية، أقدر ماقولش إنى بحبك لكن ماقدرش أمنع قلبي يحبك.

تبكي من شدة سعادتها تقفز بين أحضانه متناسية أنها في الشارع، تعانقه بشدة، تترك حضنه قليلًا لتنظر في عينيه لأول مرة دون أن تهرب منها:

- بحبك.

تمت بحمد الله

أغسطس 2020

هند العراقي